توفيق الحكيم

عدالة وفن

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ـــ ترجمة أبا إيبان ـــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ . ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان — لندن .

عندما دوّن وكيل النائب العام . « يوميات نائب فى الأرياف » لم يقصد نائبًا ولا قرية بالذات ، ولكنه صوّر نماذج بشرية وأحوالا اجتماعية مما قد ينطبق على كل رقعة فى ريف مصر .

وهو فى هذا الكتاب ينحو نحوًا آخر . فهو يقصد نائبًا بالذات .. له حبه للفن وحياة بعينها لها ميولها ونوازعها وظروفها التى قد لا تتكرر كثيرًا فى عين المحيط ، وإن كان الإطار الذى تتحرك فيه الذكريات هو الإطار الاجتماعى الذى يعكس صورة من صور حياتنا فى الأقاليم فى وقت من الأوقات .

ت .ا

١

الحاوى

ما من شىء استطاع أن يضئ لى معنى كلمة « الفن » فى مراميها الحقيقية مثل ذلك الموقف البسيط من مواقف « العدالة » فى جلسة من جلسات الجنح والمخالفات .. كنت فى مقعد النيابة العامة فى تلك المحكمة الصغيرة من محاكم الأقاليم ، أستمع فى ضجر وفى نصف وعى إلى صوت القاضى ينطلق فى رتابة مملة بأحكام الغرامات على من مارس حرفة سقا بدون رخصة واستعمل الصفائح بدل القرب ، وعلى من « تعاطى » مهنة شيال بدائرة المحطة بدون تصريح ، وعلى من باع عجلا مذبوحا خارج السلخانة ، وعلى من ذبح أنثى جاموس أو بقرة لم تستكمل نمو الأربعة القواطع الدائمة ، وعلى من أخرج جثة متوفى أو نقلها قبل

مضى الميعاد القانونى ، وعلى من لم تخطر عن انتقال مومس إلى منزلها بصفتها عايقة مسئولة ، وعلى كسح مرحاضا فى غير المواعيد المقررة ، وعلى من لم يبلغ عن ظهور الدودة ، ومن لم يقلع جذور شجيرات القطن فى الميعاد القانونى ، وعلى من فتح محلا لعمل العرقسوس والخروب والشعير بدون رخصة ، وعلى من .. وعلى من .. وعلى .. وعلى من ..

لم أجد وسيلة للتسرية عن نفسى — حتى لا أقع فى التثاؤب والنعاس — إلا التشاغل بالنظر إلى تلك النقوش العجيبة فوق منصة النيابة التى أمامى .. إنها نقوش عجيبة حقًّا ليست من صنع فنانين ، ولا من صنع عاشقين ، ولا من صنع أطفال عابثين .

ولقد كانت من صنع حضرات أصحاب العزة أعضاء النيابة الذين كانوا يجلسون ها هنا فى مجلسى هذا منذ سنوات وسنوات .. كان الضجر ولا شك يقتلهم مثلى ، ولكنهم استعانوا عليه بمطواة جعلوا يحفرون بها على خشب المنصة أسماءهم بالثلث والفارسى والرقعة والنسخ ، وتواريخ مرورهم بالمحكمة . عرفت منها أسماء أشخاص أصبحت فيما بعد لامعة مرموقة فى سلك

القضاء العالى . لقد خلدوا أسماءهم على الخشب بالمطواة على تلك المنصة العتيقة فى تلك المدينة الصغيرة من مدن الأقاليم .

حبذا لو جمعت مثل تلك المنصات وجعلت فى متحف لرجال القضاء !.. إنها خير رمز نابض لمعنى الملل أو الاستهتار أو الرغبة فى الخلود !..

لست أدرى لماذا لم أفعل فعلهم ؟..

ليس الاستنكار أو الاستهجان قطعًا . ولا هو الزهد فى الخلود طبعا . ولا حتى عدم وجود المطواة التى ما حملتها قط ، لعل السبب هو أنى كنت أكسلهم جميعاً عن فعل شىء . كان النعاس يدهمنى أحيانا ويخدر عضلاتى . وكان التأمل فى السحن والوجوه وحركات المحامين وإشارات المتقاضين وأشكال الحاضرين من لابسى الطواق واللبد والشبيلان والبلغ يرسم لى صورًا متحركة بدون شريط ولا تأليف ولا إخراج .. صور مسلية فى بعض الأحيان ، ومليئة بالمغازى والمعانى فى أحيان أخرى . ولم يكن ذلك بالنسبة إلىّ وحدى . لقد كنت أشعر وألحظ أن كثيرين غيرى من الحاضرين فى القاعة ، الجالسين على الدكك الخشبية

المرصوصة فى صفوف ، والمخصصة للجمهور قد تناولوا الأمور التى تجرى أمامهم على النحو الذى أتناوله أنا ، من حيث التسلية والاستمتاع .. أقصد بهؤلاء طبعًا فئة الحاضرين المشاهدين ممن لا ناقة لهم فى الأمر ولا جمل . تلك الفئة التى اعتادت أن ترتاد قاعات المحاكم للفرجة ليس إلا . ذلك أن الفئة الأخرى من المتهمين أو المتقاضين أو الشهود أو الأصدقاء ، قلما تتاح لهم هذه المتع الخالصة ، فهم مشغولون مهمومون بما تعنيه القضايا بالنسبة إليهم وحدهم .. كل بحسب ظروفه ، وعلى قدر النتائج والعواقب التى ستسفر عنها قضيته ، هؤلاء المساكين لا يتمتعون من الجلسة بمثل ما نتمتع به نحن الفارغين !..

أما القاضى فهو الوحيد فى الجلسة الذى لا يجد لحظة واحدة يهرش فيها . فيده اليمنى تدون بالقلم الأحكام والحيثيات التى تتلاحق ، ويده اليسرى تقلب أوراق الملفات ، وعينه لا ترى إلا المتهم باعتباره متهمًا ، والشاهد باعتباره شاهدًا ، والمحامى باعتباره محاميًا ، ولا شىء غير هذا يراه فى الجلسة التى أمامه .. فلنكن إذن على ثقة فى أن منصة القاضى نظيفة كل النظافة من أى خدش

أو نقش !..

انقضت المخالفات ، وبدأت الجنح . وكلها أيضًا مضى على وتيرة واحدة ، ولا يخرج نوعها عن السرقة البسيطة المألوفة والضرب البسيط وتبديد المحصولات الصغيرة ، ونحو ذلك . على أن هنالك قضية سرقة استرعت انتباهى وأخرجتنى من الملل قليلا . إنها جلسة سرقة عادية . سرقة دجاجة . إنها شيء عادى طبعًا . ولكن الطريقة التى اتبعت فى السرقة ، والمناقشة التى جرت بين القاضى والمتهم كان فيها ما يستحق الإصغاء والمشاهدة ..

اعترف المتهم بأنه استخدم خيطًا طويلاً متينا ربط فى طرفه حبة قمح ، وجعل يتربص بدجاجة مارة فى أحد الأزقة ، فما أن عثرت الدجاجة بحبة القمح حتى ابتلعتها ، وعندئذ جذب المتهم الخيط ، وإذا الدجاجة قد صارت فى يده بلا مشقة .

نظر القاضى إلى المتهم وقال معقبًا :

— يعنى اصطدمت الفرخة بطعم وشبه سنارة كأنها سمكة ؟!..

ـــ وهو صيد السمك حرام يا سعادة القاضى ؟!..

ـــ صيد السمك مش حرام .. لكن صيد الفراخ حرام .

ـــ إيش عجب ؟!..

ـــ لأن السمك فى البحر ليس له صاحب .. لكن الفرخة لها صاحب .

ـــ ما كانش لها صاحب .. كانت ماشية تايهة فى الحارة .. يعنى يا سعادة البك لو لقيت من غير مؤاخذة كلب تايه فى الحارة وأخذته أبقى حرامى ؟!..

ـــ الكلاب غير الفراخ .

قالها القاضى وهو مشتغل بكتابة حيثيات الحكم الذى سيصدره عما قليل ، ولكن المتهم استمر فى المناقشة :

ـــ الكلاب والفراخ كلها حيوانات !..

ـــ سمعنا عن كلاب ضالة ، لكن فراخ ضالة لم يحصل أبدًا !..

ـــ يعنى الكلب يضل والفرخة ماتضلش ؟!.. تبقى الفرخة أفطن من الكلب ؟!..

ـــ يا رجل وقت المحكمة ضيق !.. أنت متهم بسرقة فرخة ..

ـــ أنا يا حضرة القاضى ما سرقتهاش ، هى اللى بلعت قمحتى من جوعها . ولو كان لها صاحب ، كان يسيبها فى السكك تلقط قمح الناس ؟!..

ـــ ظهر لها صاحب .

ـــ وانا أعرف منين !.. كان يعمل طوق عليه اسمه فى رقبتها زى الكلاب اللى لها أصحاب .. والا أنا غلطان ؟!..

ـــ طوق فى رقبة الفرخة ؟!.. وسلسلة بالمرة ؟!..

ـــ يكون أحسن ..

ـــ انت متهم بالسرقة .

ـــ السرقة لما اكون أخذت حاجة من بيت واحد أو من جيبه ... لكن اللى يرمى حاجة فى السكة ، كأنه رماها فى البحر .. تبقى من نصيب أى واحد فقير زى حالاتى !..

ـــ كفاية يا رجل كلام فارغ !..

ـــ الكلام بالعقل يا سعادة القاضى .. أنا رحت للفرخة والا الفرخة جاءت لى ؟ لو كنت رحت بنفسى للمسروق كنت اكون صحيح حرامى ، لكن المسروق حضر بنفسه لحد

عندى !.. أكون سارقه بأى صفة ؟!..

وكان القاضى قد انتهى من تحرير حيثياته دون أن يعطى وزنا لحجج المتهم ، وختم الموضوع سريعًا بقوله :

ـــ انتهيت من دفاعك ؟.. ثلاثة أشهر حبس مع الشغل ..

والتفت إلى الحاجب صائحًا : غيره ..

واقتاد رجل البوليس المتهم ، واستأنف القاضى نظر الجنح التالية ، وأنا أفكر فى حجج سارق الدجاجة ، وأرى ـــ على الرغم مما فيها من سفسطة ـــ شيئًا من البراعة التى قد تشكك فى انطباق وصف السرقة . ولكن الأبرع من حجج المتهم طريقته فى صيد الدجاجة بدون أن يجرى خلفها ويستثير صياحها .

استمر كل شىء فى الجلسة بعد ذلك على الوتيرة السابقة ، وجعل النعاس يلعب من جديد بأجفانى ، إلى أن تنبهت مرة أخرى على صوت غريب لرجل غريب . كانت جنحه تشرد . قال القاضى للرجل الغريب :

ـــ أنت متهم بالتشرد ، على الرغم من إنذار البوليس .

فقال الرجل بنبرة استنكار واحتجاج :

ــ أنا متشرد ؟!.. عيب !..

وقلب القاضى صفحات الملف الذى أمامه وقال :

ــ وارد فى محضر البوليس أنه ليست لك وسيلة مشروعة للتعيش .

فقال الرجل باعتزاز :

ــ أنا حاوى يا سعادة البك .

ــ والحاوى يعتبر صاحب صنعة مشروعة ؟..

ــ طبعًا يا سعادة البك .. هو كل واحد يقدر يكون حاوى ؟!.. أنا ضيعت عمرى كله فيها .. تعلمتها وأنا صغير ابن عشر سنين .. تحب افرج سعادتك ؟؟..

ــ تفرجنى ؟!..

ــ لما تشوف الشغل يا بك تحكم انها صنعة ولا كل صنعة .. صنعة شطارة وحداقة !..

وقبل أن ينتظر رأى القاضى شمر الحاوى عن كم ساعده الأيمن ، واقترب من المنصة قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم مد أصابعه إلى ذقن القاضى فأخرج منها كتكوتا أصفر .. وإذا

الكتكوت يقفز أمام أعيننا المندهشة فوق منصة القاضى .. فضج جمهور الحاضرين بأصوات يختلط فيها الإعجاب بالضحك ، وعلا التهليل والتكبير « الله أكبر » !.. ولم يدر القاضى أيضحك هو أيضًا أم يعجب أم يغضب ؟!.. ونظر إلى جمهور القاعة فأيقن من مظهر سروره وابتهاجه أنه يكاد ينسى أنه فى قاعة محكمة ، وأن المتعة قد استولت على لب الجمهور الساذج من القرويين ، ممن لم تتح لهم كثيرًا مثل هذه الألعاب ، فجلسوا مبهورين ناسين أنفسهم ، راجين أن تستمر الجلسة على هذا النحو من الفرجة المجانية .. ورأى القاضى أن يضع حدًا لهذا السرور الغامر ، فآثر الغضب ودق بقلمه دقًا شديدًا على المنصة ، آمرًا بالسكون التام وإلا أخرج الجمهور من القاعة .. فخيم الصمت فى الحال على القاعة .. وعادت السحن والوجوه إلى الكآبة بعد الابتهاج .. وصوب القاضى نظرة نارية إلى الكتكوت الذى لم يزل يتبختر فوق المنصة غير مصغ إلى الأوامر .. وعندئذ فطن الحاوى إلى الموقف فمد يده ، وسرعان ما اختفى كتكوته .. واستأنفت الجلسة سيرها الجاد الوقور كأن شيئًا من هذا لم يحدث ..

لا حاجة بى إلى القول إنى كنت أول المستمتعين بما حدث فى الجلسة ، وأول الضاحكين — فى كمى طبعًا — لمنظر الكتكوت وهو يخرج من ذقن زميلنا القاضى ، وأول الآسفين على انتهاء هذا الفصل المضحك بهذه السرعة .. ولكننى أيضًا كنت أول الخائفين على مصير هذا الحاوى المسكين .. فإن فعلته هذه التى ظنها تؤيد حجته ، قد تنقلب وبالا عليه ، وتسخط القاضى على حرفته .. ولكن من حسن حظه أن القاضى كان من أولئك الطيبين الأخيار ، الذين لا يسمحون لانفعالهم الطارئ بالطغيان على شعور العدالة .. فسرعان ما عاد الهدوء والصفاء إلى وجه القاضى ونفسه ، وبدأ يناقش القضية بروح الراغب فى الوصول إلى الحقيقة والحق .. والتفت إلى الحاوى وقال له :

— اقتنعنا أنك بارع وأن براعتك فى خفة اليد .. ولكن هل كل خفة يد تعتبر صنعة شريفة ؟.. النشال أيضًا بارع فى خفة اليد ..

فقال الحاوى محتجًا بقوة :

— وأنا نشال لا سمح الله ؟!.. النشال خفة يده فى جيوب الناس !.. لكن أنا يا سعادة البك بخفة يدى عمرى ما سرقت ..

خفة يدى تدهش الناس وتسرهم .. وكل واحد يدفع لى ما فيه القسمة عن طيب خاطر !.. أنا فنان يا بك .. أنا فنان !..

ـــ فنان ؟!..

قالها القاضى ثم التفت إلىَّ كما لو كان يريد أن يسألنى أحقًا ما يقول هذا الحاوى ؟.. فالقاضى يعرف صلتى بالفن وهو ايتى له فى كل صوره ، لكثرة ما سمعنى فى أوقات الراحة إذا جمعتنا مجالس الزملاء ، أتِحدث فى الشعر والموسيقى والأدب والتصوير .. ولعله سمع همسًا من بعض الأصدقاء القدماء أنى كنت ممن يكتبون للمسارح وينظمون الشعر والزجل قبل التحاق بسلك النيابة والقضاء .. كانت نظرة القاضى إلىّ نظرة يريد أن يسمع من فىّ استنكارًا .. فمن غير المعقول فى رأيه أن يكون هذا الحاوى زميلا أو فنانًا كما أردت أنا أن أكون .. وقدرت فى نفسى أن أى إجابة أو إشارة قد تحدد مركز هذا المتهم .. فالقاضى يعتبرنى ولا شك خبيرًا فى هذه الشئون ، وإذا قلت ما أعتقد فسيكون هنالك تناقض بين رأيى فى الفن ورأيى كممثل للاتهام ..

هل أستطيع أن أقول للقاضى إن هذا الحاوى يملك صفة من

صفات الفنان .. إذا قلت ذلك فمعناه أنى أبرىء الحاوى من التهمة ، ووظيفتى أن أدينه لأن المفروض أن النيابة هى التى قدمته إلى المحاكمة .. ليس أفضل إذن من أن نناقش الأمر بعيدًا عن المتهم وتهمته ..

فقلت :

ــ البراعة شرط من شروط الفن .. ولكن هل البراعة وحدها يمكن أن تصنع فنانًا ؟!..

فقال القاضى :

ــ تقصد أن ليس كل بارع فى عمله يعتبر فنانًا ؟..

قلت :

ــ إن الفن هو الشىء الزائد على البراعة .. والفنان هو الذى يبقى بعد البراعة ..

فسألنى القاضى السؤال الطبيعى الذى يقتضيه التسلسل المنطقى المعتاد فى مجال التحقيق القضائى :

ــ وما هو هذا الشىء الزائد أو الباقى ؟..

فقلت وأنا أحاول البحث عن أبسط الألفاظ وأيسر الصور

التى يمكن أن توضح فكرتى :

ـــ لست أدرى كيف أقول .. ربما كان هو الإشعاع الخاص الذى له القدرة على النفوذ خلال طبقات الأجيال ..

فبدا على وجه القاضى أنه لم يفهم .. وله الحق فاستأنف مفسرًا :

ـــ ما هو الفرق بين خاتم من الزجاج وخاتم من الماس ، لهما نفس البراعة فى الصياغة ؟.. الفرق ولا شك هو فى قوة إشعاع الماس .

فارتاح القاضى قليلا لهذا التشبيه .. وقال :

ـــ معقول .. ولكن هذا الحاوى ؟..

فاستطردت فى الحال ، وقد شجعنى حسن تقبل القاضى للتشبيه على أن أتوسع فيه ، فقلت :

ـــ ثم إن لإشعاع الماس درجات أيضًا وأنواعا متعددة :

فهناك مثلا ألوان الماس ، بعضها ناصع البياض ، والآخر مائل إلى الصفرة ، وهكذا .. وعلى اختلاف الألوان والدرجات تختلف قوة الإشعاع ، وقوة التأثير .. كذلك الحال فى الذهب والنحاس .. هنالك خاتم من ذهب وآخر من نحاس وقد يصنعهما

صانع واحد بعين الشكل وعين البراعة ، ولكن النحاس يصدأ بعد وقت ، والذهب يبقى .. والذهب نفسه طبقات ودرجات .. ذهب عشرة قراريط ، وذهب عشرين أو أربعة وعشرين قيراطا ..

وهنا التفت المتهم إلى القاضى قائلا :

ـــ أنا قلت انى جواهرجى .. إنى صايغ ؟.. أنا قلت انى حاوى يا سعادة البك !..

فقال له القاضى :

ـــ اصبر !.. اصبر !..

وكان فى نبرة القاضى ما ينم على أنه يريد أن يقول « انتظر معى !.. انتظر !.. حتى نرى آخرتها !.. » ونظر إلىّ نظرة من يدعونى إلى استكمال حديثى وقال فى شىء من الضيق المغلف بالأدب :

ـــ تفضل !..

فاستأنفت أشرح :

ـــ فى الواقع أن الفوارق بين الماس والزجاج والذهب

والنحاس هى فوارق فى الإشعاع والزمن .. والأمر كذلك فى مجال الفن .. فهناك عمل فنى بارع جدًا ولكن إشاعه ضعيف .. والإشعاع غير البريق .. فقد يكون له بريق خاطف حقًا ، كبريق النحاس المجلو ، ولكنه يصدأ بعد حين .. وتاريخ الفن يدلنا على أعمال فنية كانت غاية فى البراعة والبريق فى عصرها ، ثم صدئت وانطفأت بعد ذلك انطفاءة الأبد ، كما يدلنا على أعمال فنية أخرى لم يكن لها مثل تلك البراعة والجاذبية واللمعة فى وقتها ، ولكنها استطاعت أن تحتفظ بما لها من إشعاع داخلى على مدى العصور التالية .. إن البريق وحدة يخطف البصر ، ولكنه لا ينفذ إلى الأعماق .. أما الإشعاع فقد لا يخطف البصر كثيرًا ، ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس وإلى أبعاد الزمن : أى طبقات الأجيال .. « الزمن » هو البعد الرابع عند « إينشتين »، ولكنه ربما كان البعد الأول فى الفن الحقيقى .. لأنه هو المقياس الملموس لقيمة الفن .. وكما أن إشعاع « الراديوم » يؤثر فى خلايا الجسم ، كذلك قوة الإشعاع فى عمل فنى أصيل تؤثر فى خلايا المجتمع ، جيلا بعد جيل ، تعلمه وتهذبه وتثقفه وتطوره وتنير له سبل حياة تتجدد

باستمرار .. إن البراعة الفنية فى ذاتها عقيمة لا تولِّد شيئًا ولا تقوم إلا بذاتها .. إن أهمية الإشعاع الفنى هى أنه يحدث طاقة تتولد منها طاقات يولد بعضها بعضا .. إلى مالا نهاية .. إن ماضى الفن يعج بالبراعات الفنية الباهرة التى نجحت النجاح الساحق فى وقتها ، ولكن التاريخ لم يحتفظ لنا منها بشىء يذكر ، ولم يحفل بأن ينقلها إلينا ، لماذا ؟.. لأن باب التاريخ من بللور سميك لا ينفذ منه مجرد تصفيق النجاح ، ولكن الذى ينفذ منه هو شعاع الجوهر الذى ينفع الناس فى كل عصر ويولد طاقات .. ذاكرة التاريخ الفنى لا تشحن إلا بالإشعاعات والطاقات ، لأنها هى التى تدفع المحركات التى تسير بها الإنسانية ..

وأنسانى التدفق والتحمس نفسى ، فلم أفطن إلى أن مثل هذا الكلام ليس مما يقال فى جلسة كهذه ، فقد كان وقع هذا الكلام غريبًا على الحاضرين جميعا .. فقد كنت فى نظرهم كمن يرطن رطانة لا عهد لهم بها .. واستوى فى ذلك الجميع ، من القاضى إلى المتهم .. وقد صمتوا جميعًا كأن على رؤوسهم الطير .. لا هم مستطيعون استيضاحى فيما أنا أهرف به ، خوفًا من أن يجئ

التوضيح أسوأ مما سمعوه ، ولا هم قد فهموا شيئًا مما قلت حتى يقيموا على أساسه معنى من المعانى .. كل ما بدا على وجه المتهم هو أنه فهم أنى أترافع ضده .. ولكنه عاجز عن أن يمسك بخيط ضئيل من أقوالى يتيح له دفع التهمة أو دحضها .. وأسلم أمره إلى الله وسكت .. أما القاضى فقد جعل يعبث بالقلم بين أصابعه وهو مطرق يفكر فيما ينبغى له أن يحكم به ، وهو لم يخرج من كلامى الطويل بشىء مفهوم .. وطالت به الحيرة ، واستبد به التردد . وتململ فى كرسيه من الضيق .. وأخيرًا رفع رأسه بقوة وصاح فى المتهم :

— رح يا رجل .. براءة !..

٢

رجل المال

كان يبدو لى فى ذلك الصباح وأنا داخل مكتبى بدار النيابة أن ذلك اليوم سيكون من الأيام الهادئة ، فلا جلسة ولا جنح ولا مخالفات .. وليس معنى الهدوء أنى سأجلس بلا عمل ، بل معناه أنى سأجد وقتًا أتفرغ فيه لدراسة أكوام الملفات المتخلفة ، وانتظار الإيراد اليومى من قضايا التلبس .. على أنى لم أكد أنتهى من ارتشاف قهوتى وأبدأ باسم الله فى فتح أول ملف حتى طُرق باب حجرتى ، ودخل علىّ أحد المحامين الكبار المشهورين آتيًا من القاهرة .. فرحبت به الترحيب اللائق بمكانته وسألته عن سبب التشريف فقال :

ـــ قضية تبديد ..

ـــ تبديد ؟!.. وهل مثلك يأتى من القاهرة لجنحة تبديد !..

ولم يمض قليل حتى طرق الباب مرة أخرى ، ودخل محام كبير مشهور آخر ، وما كدت أنتهى من الترحيب به هو كذلك حتى ظهر محام ثالث كبير ومشهور هو أيضًا .. فرحبت وسألت عن سر كل الاهتمام بالحضور إلى نيابتى الصغيرة .. فقالوا كلهم :

ـــ قضية التبديد !..

ـــ تبديد فقط ؟!.. والله لو كانت جناية قتل لندر أن يجتمع فيها ثلاثة من الأقطاب مثلكم !.. وهذه القضية عندى الآن ؟!..

فقالوا :

ـــ لا بد .. إنها فى الطريق إليك إن لم تكن قد وصلت ضمن قضايا التلبس ..

فضغطت على زر الجرس . فظهر الحاجب ، وسألته :

ـــ هل وصلت قضايا التلبس من مركز البوليس ؟..

فذهب يستعلم .. ثم عاد يخبرنى أنها وصلت للتو .. فالتفت إلى المحامين أقول :

ـــ حرصًا على وقت حضراتكم سأبدأ بهذه القضية فورًا .. وطلبت فى الحال إحضار المتهم المقبوض عليه فى تبديد ، ضمن قضايا التلبس الواردة من المركز .. وانقضت لحظة ثم سمعت

صلصلة السلاسل ، ودخل العسكرى يجر المتهم المرتدى الخيش والمقيد بالحديد ، وسلمنى محضر البوليس الخاص به ، فأمرته بفك قيود المتهم .. وسألت المحامين وأنا أتصفح المحضر بسرعة :

— حضراتكم عن المتهم ؟..

فأجابوا كلهم فى نفس الوقت :

— لا .. نحن عن الباشا ..

— ألباشا ؟!..

— المجنى عليه .. مطالبين بالحق المدنى ..

وكنت فى هذه الأثناء قد ألممت بمضمون التهمة كما وردت فى المحضر ، وهى أن هذا المتهم بدد مبلغ خمسة آلاف جنيه تسلمها من « ... » باشا بصفته وكيل دائرته ؛ لينفقها فى أعمال الزراعة وأجور الأنفار .. والتفت إلى المتهم أسأله ، ولكنه بادرنى شاكيا :

— المركز أهاننى إهانات بالغة يا سعادة البك الوكيل !.. فقلت له :

— ضربوك ؟..

— ضربونى ..

قالها الرجل وهو يمسح دمعه .. فانبرى له المحامون الفطاحل قائلين :

ــ كذاب .. فيك إصابات ؟..

ــ لا .. إنما ضرب إهانة .. لأجل خاطر الباشا .. وأنا عمرى ما حد أهاننى ، ولا وقفت فى مركز أو قسم موقف تهمة .. والله عليم شهيد ..

ولم أر من المجدى أو النافع فتح باب التحقيق فى الإهانة أو الضرب ؛ لأن هذا فى العادة لا يؤدى إلى نتيجة ، ما دام الضرب لم يثبت بإصابات ظاهرة .. والبوليس خير من يعرف ذلك .. وله طريقته فيما يسميه الضرب « الكتيمى » .. وأصبح من المتعارف عليه أن هذا يحدث ، وأصبح من حقوق البوليس ، ما دام يتم فى الحدود التى تكفل السرية التامة .. لقد قلت ذات مرة لمأمور بوليس وأنا أمزح : « سيأتى يوم يحدث فيه تحقيق البوليس بواسطة آلات تسجيل الصوت .. وعندئذ تستطيع النيابة أن تعرف ما الذى قيل وحدث بالضبط وقت التحقيق » فقال المأمور الظريف على الفور بكل صراحة : « يا خبر !.. ونضرب المتهمين ازاى ؟ »... فما بالى إذن وأمامى اليوم محامون أقطاب .. جاءوا

ليكذبوا هذا المتهم فى كل كلمة يقولها لمصلحة طرف آخر صاحب لقب ونفوذ ؟!.. فلأدخل إذن فى التهمة الأصلية مباشرة ..

سألت المتهم :

— أنت متهم بتبديد مبلغ خمسة آلاف جنيه ..

فأجاب المتهم متسائلا :

— بأى صفه يا سعادة البك ؟!..

— بصفتك وكيل دائرة الباشا ..

— أنا عمرى ما كنت وكيل دايرة الباشا ، ولا استخدمت عنده ساعة واحدة !.. أنا شريكه ..

— شريكه ؟!..

قلتها فى دهشة لعدم توقعى هذا الجواب .. ولكنه أصر مؤكدًا :

— من أول يوم عرفته وأنا شريكه .. أكثر من عشرين سنين !..

فهب المحامون الثلاثة الأقطاب يصيحون فى وجه المتهم فى نفس واحد :

— اخرس !.. كذاب !..

فطلبت إليهم بأدب أن يتركوا لى استجواب المتهم ، وأن يتركوا له كامل الحرية فى الإدلاء بأقواله ، لأن هذه الحرية هى ما كانوا سيطالبون بها لو أن الظروف وضعتهم محامين عن هذا الطرف المتهم .. فسكتوا مرغمين ..

والتفتُ إلى المتهم أقول له :

ـــ تفضل .. تكلم !.. قل لى الحكاية كلها !..

فأخذ المتهم يسرد حكايته العجيبة .. قال إن الباشا فى الأصل كان يعمل « قبانيا » بسيطا فى القرى ، يقوم بوزن أكياس القطن للزراع فى المواسم .. وقد وزن له قطنه بالفعل .. فقد كان مزارعا يملك ثلاثة أفدنة ، و لم يزل مزارعا حتى اليوم ، وإن كان عدد أفدنته زاد اليوم إلى عشرة .. وكان هذا القبانى البسيط رجلا ذكيًا لماحًا جعل يراقب الفلاحين وضيقهم فى منتصف العام ، بعد فراغهم من بيع المحاصيل وتسديد الإيجارات والسلفيات والمتأخرات .. كانت تلك الفترة فى حياتهم فترة عصبية .. فترة قحط نقدى فظيع،ينسون فيها شكل النقود نسيانًا تامًا..فمن « شخشخ » لهم بعملة نقدية فى ذلك الوقت يستطيع أن يذهب بعقولهم جميعًا .. ومن هنا جاءت الفكرة النيرة لهذا القبانى .. ظل

يجمع عشرة جنيهات فى أول الأمر ، ثم عشرين ، ثم خمسين ، ويوزعها على الفلاحين فى هذه الفترة ، كل على قدر حاجته أو مقدرته ، على أن يردوا ما أخذوه فى صورة محاصيل فى المواسم... فمن أخذ خمسة قروش صاغا ، عليه أن يردها نصف كيلة ذرة فى الموسم ، ومن أخذ عشرين قرشًا عليه أن يردها كيلتى قمح ، ومن أخذ جنيها عليه أن يرده ربع قنطار قطنا وهكذا وهكذا .. والفلاحون وهم يرضون بهذه السلفية العجيبة لا يفكرون فى الغبن الواقع عليهم ، ولا فى الربح الفاحش الذى يجنيه القبانى من عرقهم ، فحسبهم أنهم تلقوا قطرة ماء ترطب حلوقهم فى وقت الجفاف الخانق ، عملا بالمثل « أحينى اليوم وأمتنى بكره ! .. » أما فى موسم المحاصيل فإن جو الفرج المنعش خليق أن يخفف عنهم وطأة التضحية ويلهيهم عن أرباح القبانى الفاحشة !.. وظل القبانى الصغير يكبر ، وتكبر معه مبالغ السلفية ، فمن خمسين جنيها إلى مائة .. إلى خمسمائة .. إلى ألف .. إلى ألفين .. إلى خمسة آلاف .. وأرباحه منها تبلغ مئات الأرادب والقناطير ، يبيعها عند ارتفاع الأسعار ، وبعد خمسة أو ستة أعوام كان قد أسس ثروته وأصبح من الأعيان ثم من أعضاء

مجلس النواب وتزوج من أسرة كبيرة ، وأخيرًا اشترى الباشوية وهو اليوم « فلان باشا » صاحب المال والجاه والنفوذ المرموق .. وسكت المتهم قليلا ، وأراد المحامون أن يهبوا هبّتهم، فأسكتهم بإشارة من يدى . وقلت للمتهم :

ـــ وما موقفك أنت من كل هذا ؟..

فقال : إن القبانى الصغير بفطنته لمح فيه الطيبة والأمانة فى المعاملة منذ أول يوم تعارفا فيه ، فعندما جاءته الفكرة لجأ إليه وصارحه بخطته ، ووضع فى يده خمسة جنيهات ، وقال له احتفظ لنفسك بجنيه واحد ، ووزع الأربعة على الراغبين فى الاقتراض بالشروط التى حددها له .. ونفذ المتهم تلك الرغبة بكل أمانة .. فلما جاءت السنة التالية ، جاءه القبانى بعشرة جنيهات ، أعطاه منها جنيهين وطلب إليه توزيع الباقى ، وهكذا فى كل عام .. إلى أن بلغ المبلغ ألف جنيه وهنا اتفق معه على جعل ثابت حدده بمبلغ يتراوح من مائة جنيه إلى مائتين كل سنة مهما يبلغ المبلغ بعد ذلك ، وسماه « هدية » موهما إياه بأن عليه أعباء جسيمة ومصروفات باهظة يتكلفها فى سبيل الحصول على هذه المبالغ ، فى حين أنه هو : أى المتهم لا يفعل شيئا إلا أن يحصل على الهدية

القيمة !..

سألت المتهم :

ـــ وهل حقًا أنك تسلمت منه خمسة آلاف جنيه ..

فقال وقد أدهشتنى إجابته الصريحة :

ـــ حصل ..

ثم استطرد يقول : إنه تسلم منه مثل هذا المبلغ فى العام الماضى والعام السابق له .. وقد قام فعلا بالتوزيع المعتاد فى العامين السابقين .. أما هذا العام فإنه لم يكد يتسلم المبلغ من الباشا فى قصره ، ويعود به إلى القرية حتى فقد منه ..

ـــ كيف فقد ؟..

قال : إنه عند عودته إلى القرية أذن عليه المغرب وهو على الزراعية ، وصادف مصلى معرشة بالبوص مفروشة بقش الأرز قائمة على حرف الترعة ، فعرج عليها ، وكان لها درج من حجرين يهبط إلى مستوى الماء للوضوء ، فخلع جلبابه وعباءته ، ونزل ليتوضأ فسقطت من جيبه الصرة الصغيرة ، وهى منديل محلاوى كبير كان يصر فيه أوراق المئات والخمسينات والعشرات التى تسلمها من الباشا .. سقطت فى الترعة ، وجرفها التيار ثم

ابتلعها ، وهو ذاهل لا حول له ولا طول ..

وهنا هبّ المحامون هبّتهم :

— هل بلغت البوليس بضياع المبلغ ؟..

فأشرت إلى المتهم أن يجيب على هذا السؤال .. فقال :

— أبلغ البوليس ؟!.. وإذا سألنى عن مصدر المبلغ وسبب حمله والغرض منه ؟!.. أنا خفت على اسم سعادة الباشا !..

فهز المحامون رؤوسهم ساخرين :

— دفاع جميل !..

فالتفت إلى المتهم مستجوبًا :

— وماذا فعلت بعد ضياع المبلغ ؟..

فأجاب :

— رحت أبلغ الباشا فى الحال ، فاتهمنى بالاختلاس والتبديد وسلمنى للمركز ..

— وماذا قلت فى المركز ..

— قلت ما قلته لحضرتك دى الوقت !..

فانبرى أحد المحامين يقول :

— كذاب !.. كل ما قلته فى المركز هو أن المبلغ ضاع منك ،

ولكنك لم تذكر كلمة واحدة عن الحكاية الطويلة العريضة عن مسألة التسليف .. هذا ثابت فى محضر البوليس يا حضرة الوكيل .. وأردف المحاميان الآخران :

— حكاية التسليف حكاية جديدة ، اختلقت هنا اختلاقًا .. وسمعت هنا الآن لأول مرة .. ولم يرد لها أى ذكر أو إشارة فى محضر المركز !..

وكانت هذه الملاحظة صحيحة .. فإنى عند تصفحى للمحضر لم أجد فى أقوال المتهم ما أدلى به أمامنا من أسباب نشأة العلاقة بينه وبين الباشا .. فقلت له :

— لماذا لم تذكر هذه الأقوال فى المركز ؟..

فقال :

— ذكرتها والله العظيم كلها فى المركز بالحرف الواحد .. لكن حضرة الضباط رفض إثباتها فى المحضر .. وضربنى بالكف وقال لى « يا ابن الكلب غرضك تشنع على سعادة الباشا » !.. وكتب فى الورق كلمتين ورمانى فى الحبس ..

فقال المحامون الثلاثة فى صوت واحد :

— كلام فارغ طبعًا !..

ونظر فى ساعاتهم وتأهبوا للنهوض :

ـ القضية ظاهرة !..

وكان معنى قولهم هو أن التهمة ثابتة ، وأنه ليس علىّ إلا أن أصدر الأمر بحبس المتهم احتياطيًا .. وبدا لى الموقف محيِّرًا .. فأنا لم أقتنع بعد بإدانة المتهم فقد تكون كل كلمة قالها صحيحة .. هل أزج فى الحبس برجل هذا عمله عند الباشا ؟!... هذا العمل العجيب الذى يؤدى إلى الثراء ، ثم إلى الجاه والنفوذ بهذه السرعة والسهولة ؟!.. ولكن كيف كانوا يتعاملون مع الفلاحين فى مثل هذه السلفيات ؟!...

سألت المتهم :

ـ كنتم تأخذون بالطبع إيصالات المبالغ التى تقرضونها للفلاحين ؟..

فاستراح المحامون لهذا السؤال وقالوا :

ـ نعم .. اسأله هذا السؤال .. أين الإيصالات ؟.. فأجاب المتهم للفور :

ـ إيصالات ؟.. أبدًا .. لا إيصالات ولا كتابة ولا أى شىء .. عمرنا ما تعاملنا مع الفلاح بإيصالات ولا كتابات ..

فصاح المحامون :

ـــ وهل هذا معقول ؟!..

فسألت المتهم مستفسرًا :

ـــ كيف كان يتم التعامل إذن ؟!..

فأخذ المتهم يسرد الطريقة قائلا : إنها فى غاية البساطة ، إلى حد أنه كان يقوم بهذه العملية وحده منذ أول يوم ، عندما كان المبلغ خمسة جنيهات ، إلى آخر يوم ، عندما صار المبلغ خمسة آلاف جنيه .. كان صاحب الحاجة من الفلاحين يأتى إليه ويسر إليه بحاجته ، فيعطيه فى الحال مطلوبه فى السر ، بلا شهود ولا كتابة ولا إجراءات .. كل ما كان يفعله هو أن يكتب اسمه والمبلغ الذى قبضه على أى قطعة ورق يصادفها ، وأحيانا على ظهر علبة سجاير قديمة ، وذلك لمجرد التذكر .. أما الفلاح المقترض فيذهب بالمبلغ الذى اقترضه دون أن يوقع أو يبصم بما يفيد أى استلام ..

وضج المحامون بالقول :

ـــ أهذا كلام يدخل العقل ؟!..

ومضيت أستجوب المتهم :

ـــ وهل كان يأتى الفلاحون المقترضون بعد ذلك للسداد ؟!.

فأجاب للفور :

ـــ ما تخلّف واحد وأشهد الله !..

فقلت وقال المحامون معى :

ـــ شيء عجيب !...

ـــ إى والله !.. ما يهل الموسم إلا وكل فلاح اسمه عندى يظهر ومعه ما عليه لنا من المحاصيل !..

فقلت للمتهم وأنا أتعجب :

ـــ وما هو الضمان ؟..

فأجاب المتهم :

ـــ الضمان كلمة الشرف وحسن المعاملة ؟..

فصاح المحامون مستهزئين :

ـــ الشرف ؟!..

فنظر المتهم إليهم ، وأخذ يقول متأكدًا أن نعم ، كلمة الشرف تكفى ، واصدق الفلاح يصدقك ، وأعطه بدون ضمان يعطك بلا ضمان .. هذه السهولة فى الاستلام تدفعه إلى السهولة فى السداد .. وهو يعلم أنه إذا تخلف مرة واحدة عن تسديد ما عليه

فإنه لن يستطيع الاقتراض مرة أخرى فى أيام الجفاف والفاقة بهذه السهولة .. فهو ما يكاد يجمع محصوله حتى يبادر بتسليمنا نصيبنا منه ، فيضمن بذلك عودته إلى الاقتراض يوم تشح النقود فى الريف .. القبض بسهولة والسداد بسهولة .. بدون ورق ولا إجراءات ولا ضمانات .. تلك هى الطريقة التى يفهمها الفلاحون فى الريف ..

وأردف المتهم قائلا :

— أنا والباشا أصلنا من الفلاحين ونفهم الفلاحين !..

قلت للمتهم :

— أما كان الأوفر للفلاحين أن يقترضوا من البنوك ؟.. من بنك التسليف مثلا ؟..

فأجاب :

— بنك التسليف له إجراءات وضمانات ما يقدر عليها غير كبار الملاك .. هو بنك التسليف خلقوه إلا لسواد عيون كبار الملاك !..

والواقع أن الفكرة الأولى لإنشاء هذا البنك كان الغرض منها إنقاذ الأسر الكبيرة المالكة من الانهيار ونزع ملكياتهم لمصلحة

الدائنين الأجانب .. ثم أصبح هذا البنك بعدئذ فى خدمة زراعاتهم أو طلباتهم ، وأشار المتهم إلى أنه لا يستبعد أن يكون الباشا قد اقترض من بنك التسليف أو غيره هذه المبالغ بفوائد بسيطة ؛ كى يقرضها للفلاحين بهذه الفوائد العينية الباهظة من المحاصيل !..

سألت المتهم سؤالا خامرنى للتو :

ـــ وأنت ؟.. أكل عملك هو أن تكون مجرد منفذ لعملية التسليف فى نظير مكافأة أو هدية ؟..

فقال هازًا رأسه بالإيجاب :

ـــ فقط لا غير ..

ـــ لماذا لم يخطر لك أنت أيضا أن تستغل مبلغ المكافأة أو الدية فى هذه العملية المربحة المؤدية إلى الثراء السريع لحسابك الخاص ؟!..

وأعجب هذا السؤال المحامين ؛ فصاحوا مهللين :

ـــ نعم .. حقيقة .. لو كانت روايته صحيحة لكان من المعقول أن يصبح هو أيضا غنيًا وباشا آخر !..

فقال المتهم وهو يتنهد :

ـــ أنا طلعت مغفل !... اخترت سكة الندامة !..

فسألته :

— وما هى سكة الندامة ؟..

— اتجهت لشراء أرض وزراعتها ..

قالها بعينين زائغتين كأنما تراجعان مصيره بأكمله .. وقرأت فى نظراته ، كأنما أقرأ فى صفحات كتاب فى الاقتصاد ، كل معنى الفرق بين رأس المال والعمل .. بين المال الذى يستغل لاجتذاب المال ، والمال يستخدم للعمل .. ها هما ذان رجلان من طبقة واحدة وبيئة واحدة .. بدأ أحدهما بمبلغ صغير لم يتجه به إلى شراء شىء ، بل استغل هذا المبلغ طُعمًا لاصطياد مالٍ أكبر ، أو بعبارة أخرى اعتبر المال أداة يمكن تأجيرها لوقت معين فى مقابل ثمن معين ، وتظل هذه العملية تتكرر فى جهاز عجيب يتضاعف إيراده ، دون أن يحتاج الأمر إلى عمل ، أو تمر العملية بمنطقة العمل .. فى حين أن الآخر جعل من مبلغه نواة لشراء أرض تحتاج إلى عمل وكد .. الأول جعل المال يتحرك بنفسه حركة دائمة تدر أرباحًا مستمرة ، والثانى جمد المال فى عين محدودة ، تدر بعد الكد والعمل ربحًا محدودًا .. وكان السباق بينهما مستحيلا ، كالسباق بين المحدود وغير المحدود .. هذا هو السباق بين

العمل — كأداة للثروة — وبين المال .. وكان لهذا الفرق أيضًا نتائجه الاجتماعية .. فالأول سرعان ما ترك بيئته وطبقته التى أنتمى إليها هو وزميله ، وارتفع على أجنحة المال إلى بيئة أخرى وطبقة أخرى ، وأصبح له الحق والنفوذ أن يزج بزميله القديم فى السجون .. كل هذا الفرق الشاسع بينهما بنى على أساس بسيط : هو طريقة استغلال المال ..

وهنا قطع المحامون سلسلة تفكيرى بقولهم :

— المتهم معترف .. والموضوع أصبح فى حكم المنتهى .. ووقتنا ضيق .. تسمح لنا ؟!..

وتحركوا للانصراف كى يحملونى على اتخاذ القرار .. ولكن المتهم قال محتجًا :

— من قال إنى معترف ؟!..

فقال المحامون :

— أنت اعترفت الساعة باستلام المبلغ !..

فرد المتهم فى الحال :

.. استلمته .. وأنا غير ناكر .. وكان فى إمكانى أنكر .. لأنى استلمته بدون شهود وبدون ورق .. حسب العادة .. لكن

التبديد ؟!.. أبدًا .. والله ما حصل !..

فقال المحامون :

ـــ دفاعك أنه ضاع منك .. مفهوم !.. لكن هذه مسألة تفصل فيها المحكمة .. ومن هنا ليوم الجلسة يجب التحفظ على المتهم !..

قالوها ونظروا إلىّ يستحثوننى ، وكأنما يريدون أن يقولوا لى : « احبسه وخلصنا !.. »

ولكن ضميرى فى أعماقه لم يكن مستريحًا لقرار الحبس .. القضية ـــ على فرض إدانة المتهم ـــ لا تخرج عن كونها تبديد مبلغ من المال لا ندرى بعد حقيقة الدوافع لتسليمه .. إن الأمر يحتاج إلى تحقيق ، وهذا التحقيق سوف تجريه المحكمة وتستدعى الشهود .. لكننى الآن أمام باشا ذى نفوذ ومحامين فطاحل جاءوا يطلبون منى حبس متهم ليس إلى جانبه أحد .. لعل القضية لو جاءت فى ظروف عادية بسيطة كبقية القضايا ، وكنت فيها مع المتهم ، وحدنا وجها لوجه ، لما خامرنى من كل هذا شىء .. فما أكثر أوامر الحبس التى أصدرتها فى مثل هذه الأحوال .. ولعل بعضها صدر عن خطأ أو ظلم .. وأنا كأىّ بشر .. لست

بمعصوم .. ولكن عندما أشعر أنى محاط بجو من الضغط كى أصدر قرارًا بعينه ، فإن رد الفعل عندئذ هو التشكك والحذر ويقظة الضمير ..

التفتُّ إلى المتهم وقلت له :

ـــ تدفع كفالة خمسين جنيه ؟؟..

فهاج المحامون وماجوا :

ـــ تفرج عنه بكفالة ؟!..

فقلت مصرًا :

ـــ نعم ..

فصاحوا :

ـــ يبدد خمسة آلاف جنية ويفرج عنه بخمسين !!!...

فلم ألتفت إليهم ، وعدت أكرر على المتهم السؤال ، ولكنه لم يبد عليه الاغتباط ، وقال إنه لا يملك هذا المبلغ ، وإنه يفضل الحبس .. فقلت له :

ـــ ألا يوجد من يضمنك ويدفع عنك الكفالة !؟..

فأجاب بمرارة :

ـــ من يضمننى ويدفع عنى ؟!.

وجعل يقول : إن هذا الوقت من السنة هو عينه وقت الضيق والفاقة عند الفلاحين ، فقد انتهى من زمن موسم المحاصيل ، والنقود شحيحة فى الريف ، وهو الوقت الذى ينتظرون فيه من يقرضهم ، لا أن يقرضوا الغير ويدفعوا عنه الضمانات والكفالات .. ليس أمامه إلا أن يرهن خمسة قراريط .. ولكن دون هذا الإجراء وقتًا طويلا .. فالتفت إلى المحامين وقلت :

ـــ المسألة حلت من نفسها كما أردتم .. فهو إن لم يدفع الكفالة سيحبس .. ويظهر أنه عاجز عن دفعها ..

فقال المحامون :

ـــ إذن أصدر الأمر بحبسه من الآن !..

ففهمت المراد .. هنالك فرق بين أن أصدر الأمر بالإفراج عنه بكفالة ، حتى ولو حبس على أثره لعجزه . وبين الأمر بالحبس من أول الأمر .. إن معنى الإفراج بكفالة هو أن اقتناع النيابة بخطورة الجريمة ليس اقتناعا كاملا .. والمحامون على العكس ، يريدون فى هذه القضية تأييدا كاملا من النيابة .. ولكن منظرهم وقد بدا لى فى تلك اللحظة ، كمنظر الصقور الجارحة التى تريد الانقضاض على عصفور ، قد أثارنى وأفزعنى .. وكان شعورى أن العصفور

ليس الآن هو المتهم ، بل أنا وكيل النيابة الصغير ، بين مخالب ثلاثة من المحامين العتاة ، منهم من كان وزيرًا قديمًا ، ومنهم من كان رئيس محكمة استئناف سابق !..

ولكن العصفور عندما يقاوم ويصر يصبح بعيد المنال .. أنا أيضًا عولت على الإصرار .. وتركتهم يتصايحون ويدقون على المكتب بقبضات الأيدى ، ويكهربون الجو من حولى وفوق رأسى ، وجعلت أكتب قرارى فى صمت : « يفرج عن المتهم بكفالة خمسين جنيهًا » .. وسلمت المحضر لعسكرى البوليس المرافق للمتهم ، وأومأت أن ينصرف به ..

وانتهت القضية من أمامى على هذا الوجه ، ونهض المحامون الفطاحل وعلى وجوههم الامتعاض ، ولوحوا بتحية سريعة من أيديهم وانصرفوا بلا كلمة ..

* * *

كان لا بد أن أتتبع مجرى القضية بعد ذلك .. لقد عجز المتهم عن دفع الكفالة وحبس بالفعل .. ثم تجدد حبسه أمام قاضى المعارضة .. فقد حضر أحد المحامين الفطاحل من القاهرة واستطاع أن يحصل من قاضى المعارضة على تجديد الحبس .. وظل

الحبس يتجدد إلى أن قدمت القضية أخيرًا إلى الجلسة ، وجلست فى مقعد النيابه .. وجئ بالمتهم من السجن وبدأت المحاكمة .. حضر المحامون الثلاثة الكبار ، ليطالبوا بالحق المدنى : خمسة آلاف من الجنيهات المدعى بتبديدها ، خلاف التعويضات وأتعاب المحامين وكلام طويل عريض انصب على رأس المتهم ، الواقف فى قفصه ، وقد أصابه الهزال وامتقع لونه .. وكان أهل المتهم بعد رفض معارضاته وحبسة المتجدد ، قد فزعوا وأدركوا خطورة الحال فنهضوا يوكلون عنه أحد المحامين ، ولم يكن فى قدرتهم بالطبع إلا توكيل محام شاب ناشيء من المنطقة .. وقف ينظر إلى هولاء المحامين الجهابذة الكبار نظرة كلها خشية وتوقير وانكسار .. ولم يلق القاضى التفاته بالطبع إلا لهؤلاء الفطاحل من أصحاب المراكز الكبيرة ، فكان يحييهم بالابتسامة المرحبة ، وكأنهم ضيوف مبجلون نزلوا على المحكمة : فلما أنكر المتهم التهمة ، وقال إنه لم يكن وكيلا لأعمال الباشا فى يوم من الأيام .. اللهم إلا فى مسألة التسليف ..

قال محامية الشاب معقبًا :

— موكلى معترف بأنه كان يقوم بتنفيذ عملية التسليف ..

فإذا أريد اعتبار هذا العمل وكالة .. فلا بأس من أن نعترف بأن موكلى كان فعلا وكيلا عن الباشا فى التسليف بالربا الفاحش .. وعلى المحكمة الموقرة إذن أن تقدر إذا كان وصف التهمة ينطبق فى هذه الحالة ؟.. هل إذا سلم شخص لآخر مبلغًا على سبيل الأمانة أو الوكالة لاستخدامه فى تصرف مخالف للقوانين أو للنظام العام .. هل يعتبر الفعل تبديدًا فى حالة ضياع أو حتى اختلاس هذا المبلغ ؟.. هل للمحكمة أن تحمى المبلغ المبدد إذا سلم لتنفيذ عمل غير مشروع ؟!... هل إذا سلمنى شخص مبلغًا على سبيل الأمانة أو الوكالة لألعب له به قمارًا فى سبق الخيل أو لأشترى له به مخدرات .. وبددت المبلغ هل أعتبر قانونًا مبددًا ؟!..

أعجبنى دفاع هذا المحامى الشاب ، ولم أكن أتوقع منه هذا التخريج لوصف التهمة .. ولكن انتصاره لم يدم طويلا .. فقد انقض عليه أحد المحامين الكبار قائلا :

— نحن نحتج على هذا الكلام !.. هذا تشهير بموكلنا !.. وكنا نحب لمحامى الدفاع الشاب أن يكون فى مطلع حياته المهنية أكثر ارتكازًا على الحقائق والوقائع فى دفاعه .. إننا عندما نقول ونؤكد أن المتهم كان وكيلا لدائرة الباشا ، وأنه يتسلم منه هذه المبالغ

لإنفاقها فى شئون الزراعة من توريد سماد وبذرة وتطهير ومصارف ويوميات أنفار وتراحيل وخلافه ، إنما نرتكز على حقائق ووقائع مؤيدة بالبراهين ..

وقال المحامى الكبير الثانى :

ـــ إن المتهم ودفاعه لا يبغى من وراء هذه الحكاية الخيالية المختلقة إلا إثارة غبار يخفى خلفه جريمته .. وليس عنده دليل واحد يؤيد مزاعمه ..

وأضاف المحامى الجهبذ الثالث :

ـــ البلد كلها تكذب المتهم وتؤيد الحقيقة التى ندلى بها .. وما على المحكمة إلا أن تسمع شهود الإثبات ..

وعندئذ اعتدل القاضى فى مجلسه وقال وهو ينظر إلى كاتب الجلسة يملى عليه :

ـــ أمرت المحكمة بسماع شهادة الشهود !..

ثم نادى الحاجب صائحًا :

ـــ هات الشاهد الأول !..

فظهر رجل متدثر فى حرام وعلى رأسه لبدة بيضاء وهو حافى القدمين ، سأله القاضى عن اسمه فذكره ، وعن صناعته فقال :

ـــ فلاح ...

وبعد أن حلفه اليمين سأله :

ـــ بماذا تشهد ؟..

فقال وكأنه يلقى درسًا محفوظًا :

ـــ أشهد إنه وكيل دايرة الباشا !..

فسأله القاضى :

ـــ من هو ؟..

فصاح فيه أحد المحامين الكبار مشيرًا له إلى قفص الاتهام :

ـــ انظر هنا !..

فنظر الشاهد إلى المتهم وقال :

ـــ تمام هو ..

ولم يتذكر المتهم أنه رأى وجه هذا الشاهد من قبل .. وأراد المحامى الشاب أن يسأل الشاهد عن اسم المتهم ، فلم يستطع ذكر الاسم كاملا .. وعقب أحد المحامين الكبار بسرعة :

ـــ ليس من الضرورى فى الريف أن يتعارف الناس بالاسم الكامل .. يكفى أن يقولوا : عم فلان .. وأبو فلان .. وولد فلان !.. فأمَّن القاضى برأسه على هذا التعقيب من المحامى

الكبير ، وأمر بصرف الشاهد ، وإحضار الشاهد الثانى ، والثالث والرابع والخامس والسادس .. وكلهم قرروا نفس الشهادة: إنهم يعلمون أن المتهم هو وكيل دايرة الباشا المكلف بشئون زراعته .. فللباشا أطيان واسعة اشتراها أخيرًا فى المنطقة ، بعد أن استقرت ثروته ، وجعل فيها حديقة للفاكهة ، وركنا لتربية الدواجن .. وهو يحضر من آن لآخر مع الست الهانم زوجته التى تحب الإقامة فى هذا المنزل الريفى الذى يسميه الفلاحون « السرايه » لتباشر العناية بحديقتها فى بعض فصول السنة ، عندما تسأم القاهرة ..

كان كل شهود الإثبات هؤلاء من الفلاحين الذين يعملون فى أرض الباشا .. وكان من السهل أن يستمر تدفق سيلهم إلى عدد لا ينتهى .. ولكن القاضى رأى أن يكتفى بمن سمع ، وبدا عليه أنه يتهيأ لاتخاذ قرار .. وعندئذ قام المحامى الشاب قائلا :

ــ أرجو أن تسمح لنا المحكمة نحن أيضًا بإحضار شهود نفى ..

ــ يشهدون على ماذا !..

ــ على أن موكلى لم يكن فى يوم من الأيام وكيل دايرة

الباشا .. فظهرت حركة تذمر بين المحامين الكبار ، وعلا تهامس بينهم بأن المقصود تعطيل الفصل فى القضية ، ولماذا انتظر الدفاع حتى الآن لإحضار شهوده ؟.. ولكن القاضى على الرغم من ضيقه هو أيضًا الذى بدا على وجهه لم يجد مناصًا من أن يجيب طلب الدفاع :

ــ شهودك غير حاضرين طبعًا اليوم !..

فقال المحامى الشاب :

ــ لا طبعًا .. وأنا أطلب التأجيل لإحضارهم !..

فحكمت المحكمة بالتأجيل أسبوعًا واحدًا فقط لإحضار شهود النفى .. وجعل المتهم يستعرض مع محاميه وهو فى الحبس أسماء من يستطيعون قول الحقيقة بعيدًا عن تأثير الباشا ، كما قال لى المحامى الشاب فيما بعد وهو يروى لى الجانب الخفى من القضية .. قال له موكله المتهم : إن هنالك فلاحًا كان يعمل مستأجرًا صغيرًا فى أرض الباشا .. وفى ذات يوم غضبت الست الهانم عليه لأن طفلا من أطفاله تجرأ على تسلق سور الحديقة واقتطف برتقالة من فوق الشجر .. فأمرت بإحضار الطفل وجلده ، فلما أراد والده أن يحتضنه ليدرأ عنه الضرب ، أمرت

الست بطرد هذا الفلاح المستأجر هو وزوجته وأطفاله من الأرض والعزبة فورًا .. ونفذ ناظر العزبة الأمر فى الحال ، فدخل دار الفلاح ، وكانت زوجته تطهو فى حلة فوق كانون .. رطل لحم جاء به من السوق لمناسبة عاشوراء ، فطردها من الدار هى وحلتها وكانونها ، وقذف خلفها بالمرتبة والمخدة والحصير والصندوق الأحمر وهى كل أثاثهم .. رمى بكل هذا فوق جسر الطريق الزراعى .. والرجل يقول محتجًا : « أنطرد فى وسط السنة وزرعى مخضر فى الغيط ؟!.. » فلم يسمع من الناظر إلا قوله : « أخرج يا رجل من غير كلام أحسن لك ! ».. فخرج الرجل وأولاده وهو يقول للناظر ملتمسًا : اتركوا لنا فقط الوقت لنأكل رطل لحمتنا أنا والعيال ! » .. فرفض الناظر قائلا : « الست الهانم أمرت بخروجكم فى الحال يعنى فى الحال !».. شاهد المتهم بالمصادفة وهو سائر مع الباشا على جسر الزراعية هذا المنظر : منظر هذه الأسرة الصغيرة المشردة بأثاثها فى الطريق وهى مجتمعة حول الكانون تأكل رطل اللحم فى العراء .. فلما علم منها القصة وهى ترويها على الباشا متضرعة ، رأى المتهم بما له من دالة على الباشا ، أن يتشفع للفلاح وأسرته .. ولكن الشفاعة ذهبت

سدى .. فالباشا ضعيف أمام زوجته .. لأنها من أسرة أرقى وطبقة أرفع ، ولولا ما جمعه من ذلك المال ، لما استطاع الظفر بهذه المصاهرة .. فلما علم أن الست الهانم أمرت قال : « ما دامت الست هى التى أمرت فلا مرد لأمر الست !.. » ومضى فى طريقه إلى « السراية » لا يحفل بشيء .. وتأثر المتهم و لم يحتمل شعوره ترك هذه الأسرة لمصيرها المظلم فعمل على إيوائها ، وسعى لعائلها المنكوب حتى استطاع أن يجدد له بضعة قراريط يستأجرها فى قرية أخرى بعيدة عن نفوذ السيد السابق .. هذا الرجل لا بد أنه يستطيع الإدلاء بشهادة حرة تنفعه ، فأوصى محاميه باستدعائه للشهادة مع آخرين من تلك القرية الأخرى يعرفون حقيقة الوضع ..

وجاء يوم الجلسة .. ونادى القاضى على شهود النفى ، وكان محامى المتهم قد اجتهد فى حملهم على المجئ للشهادة ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق .. ولكن ها هو ذا اليوم الموعود قد أتى .. والحاجب ينادى عليهم وما من مجيب ..

والتفت القاضى إلى المحامى الشاب قائلا :

— أين شهودك يا أستاذ ؟!.

فجعل المحامى ينظر حوله فى حيرة ، ويقول لنفسه : لقد وعدونى ، ما سبب عدم حضورهم !؟؟ .. ولم تطل حيرته .. فقد جاء وكيل مكتبه يهمس فى أذنه أن ضابط النقطة أرسل إليهم من يهددهم فخافوا ... وهنا أدرك المحامى أنه لن يستطيع التغلب على الخصم .. فأطرق واجمًا لا يدرى ماذا يفعل ؟..

وأخرجه القاضى من إطراقه بقوله :

ــ نعم .. الدفاع !..

فقال المحامى وهو يتلعثم :

ــ شهود النفى كانوا جاهزين ، لكن .. حضرة ضابط النقطة منعهم ..

فانبرى المحامون الفطاحل يصيحون :

ــ أهذا كلام يقال فى حق رجال الضبط والربط !.. أهكذا يطعن فى نزاهة رجال البوليس بكل خفة .. نرجو من المحامى الشاب أن يحترم المحكمة ويزن الكلام قبل النطق به !..

واضطر القاضى أن يقول فى نبرة توبيخ للمحامى الصغير :

ــ المحكمة تأسف .. عندك دليل يا أستاذ ؟!..

فعقد الارتباك لسان المحامى الشاب ، وأحس أن كل شىء قد

أصبح ضده .. ونظر إلى العمالقة من حوله .. كل شيء من حوله أصبح فى طول العمالقة وقوتها وجبروتها ، ولم يعد هناك من ضعيف أو ضئيل إلا هو ومتهمه !..

ـ أنا متأسف !..

لفظها باهتة ذليلة منكسرة .. فقال القاضى :

ـ تفضل ترافع !..

فجعل المحامى الصغير يقول كلامًا لا وقع له ولا صدى يدور كله حول معانى فارغة مكررة مؤداها أن موكله مظلوم وبرىء وأن وصف التهمة لا ينطبق ، وأن النقود فقدت فى الترعة فعلا ، والقاضى كالعادة مشغول بتقليب أوراق الملف ، وتخطيط الحيثيات بالقلم الرصاص .. فما أن سكت المحامى ، حتى بادر القاضى يسأل المحامين الكبار عن طلبات الحق المدنى ، فقالوا :

ـ طبعًا الحكم بالمبلغ المبدد خلاف التعويضات ، ومع ذلك نفوض المحكمة فى أمر التعويضات رأفة بالمتهم . يكفينا الحكم لموكلنا بالمبلغ المبدد !..

فنطق القاضى بالحكم :

ـ حكمت المحكمة بحبس المتهم شهرين ، كما حكمت بطلبات

الحق المدنى !.. واصفر وجه المتهم .. لا لحكم الحبس .. فهو لن يمكث فى الحبس أكثر من شهر واحد ، لأن ما قضاه فى الحبس الاحتياطى على ذمة القضية سيخصم من هذه المدة .. ولكن الكارثة الحقيقية هى الحكم بطلبات الحق المدنى .. لأن معنى ذلك هو ضياع كل جهد وكد سنواته الماضية ، هو انتزاع كل أطيانه وما يملكه من ماشية وما تملكه زوجته من مدخر ومصاغ وبيعها وفاء للمبلغ المطلوب للباشا .. وبذلك يرتد مجردًا عاريًا كما كان فى أول أمره ..

انتهت القضية والمتهم يردد فى غير وعى :

— إنا لله وإنا إليه راجعون !..

٣

الطبيب الشرعى

كنا نقطن ذلك النزل الذى تديره سيدة يونانية فى ذلك البندر الكبير من بنادر الأقاليم .. نزل نظيف يحوى عدة حجرات متسعة حسنة الفرش ، أغنانا عن استئجار البيت المستقل .. كان خير مأوى للعزاب من الموظفين المقيمين أو المارين فى مهام رسمية قصيرة الأجل .. كنت تجد فيه القاضى القادم لجلسة عابرة ، أو المفتش فى الداخلية أو المالية أو التعليم الآتى فى مأمورية عاجلة .. أما المقيمون فكانوا ثلاثة .. أنا وكيل نيابة البندر .. ورجل أيرلندى هو مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة الثانوية .. ثم طبيب شرعى المديرية ..

كان من الطبيعى أن تقوم صلة بينى وبين الطبيب الشرعى بحكم العمل .. فإن أكثر الإصابات الناتجة عن الجرائم التى أتولى

تحقيقها كان عليه هو أن يفحصها .. واقتضى الأمر منى أن أذهب إلى محل عمله ؛ فكنت أعجب لمنظر المكان .. أكوام من اللبد والطواقى المثقوبة بالعيارات النارية ، وأنواع مختلفة الأحجام من النبابيت والفؤوس والبنادق الطويلة والمقروطة ، وألوان من الجلابيب والصدارى والعباءات ملطخة بالدماء .. كان الطب الشرعى وقتئذ قد أدخل حديثًا فى بعض المديريات الكبرى و لم تزل المديريات الأخرى تلجأ فى فحص جرائمها إلى مفتش الصحة كما كنا نلجأ من قبل .. ولطالما لجأت إلى مفتش الصحة ، وهو غير متخصص فى هذا العمل الدقيق .. فلما شاهدت عمل الطبيب الشرعى المنقطع لفحص الجرائم أخذتنى الدهشة .. لقد كان يكفيه أن ينظر فى لبدة مثقوبة ليقول لى كل شىء عن الجريمة والمجنى عليه والقاتل ، كأنه غجرية تنظر الطالع فى كف أو فنجان !.. فإذا هو يتدفق قائلا لى : إن القتيل ضرب على مسافة كذا ، ومات فى الساعة كذا ، وكان عندئذ فى وضع كذا ، جالسًا أو نائمًا أو راكبًا حمارًا أو فرسًا أو جملا .. وكان عمله كيت ، حالته المعيشية كيت ، وعاداته كيت ..

هذه الاستنتاجات التى ما كانت تخطئ فى أغلب الأحيان

جعلتنى أهتم بهذا النوع العجيب من العمل .. وجمع بيننا الجوار فى نفس النزل ، والتلاقى على مائدة الطعام .. فلم يمض قليل وقت حتى تمت الصلة وأصبحت صداقة بينى وبين هذا الطبيب الشرعى تبيح لى الخوض معه فى الشئون الخاصة والعامة .. قلت له ذات يوم :

ـــ إن عملك هذا لذيذ ، ولا شك أنك تمارسه بشغف ..

فقال :

ـــ أكثر من ذلك .. لقد ضحيت فى سبيله بالثروة التى كانت فى انتظارى .. لقد كنت فى أول عهدى مفتش صحة .. وأنت تعرف بالطبع الثروة التى يجمعها مفتش الصحة ..

ثم جعل يقص علىّ ما حدث له فى بداية عمله بالوظيفة الأولى .. لقد عين فى أقاصى الصعيد .. فى منطقة رأى فيها الفلاحين يخرجون من شبه جحور ليست آدمية ، وأطفالهم تحبو على بطونها كالزواحف ، والأمراض ترعى فى أجسادهم النحيلة التى لا لون ولا دم فيها .. لا تظهر لهم ملامح من الذباب الذى يغطى وجوههم وأجسادهم ، لقد شك فى أن هذا المكان قطعة من بلادنا .. ومع ذلك لم يمض اليوم الأول حتى جاء « التمرجى »

يناوله عشرة جنيهات قائلا : إنها الإيراد اليومى .. فلما سأله عن مصدرها قال له : « خير ربنا كتير ».. ومضى الشهر الأول فكان إيراده ثلثمائة جنيه خلاف مرتبه .. وفهم كيف يجرى العمل المعتاد .. فالعيادة المجانية لا يراها هو بل يتلقاها « التمرجى » ويفهم مرضاها الأوضاع ؛ من أراد العلاج المخصوص فليعد نقوده ويقف على جنب ... أما من ليس لديه نقود ويريد العلاج المجانى ، فها هو ذا العلاج المجانى يفحصه التمرجى فحصًا صوريًا ثم يسلمه زجاجة بها ماء مرشح من الزير ، ويوصيه أن يشرب منها جرعة قبل الأكل ويصرفه ويحيل على مفتش الصحة المرضى طلاب المخصوص ممن دفعوا .. وظن المفتش أول الأمر أنهم بالمجان ، ولكن التمرجى قال له : « عيب يا سعادة الدكتور تضيع وقتك هدر !.. » كل هذا خلاف الإتاوات .. فالمحال العمومية المطلوب منها اشتراطات صحية ، كالمقاهى ومحال البوظة ودكاكين البقالة والجزارة وخلافه يستصدر لها التمرجى من مفتش الصحة الموافقة اللازمة بعد استلام المعلوم ، وهو يقول له : « لا تنتقل ولا تتعب نفسك يا سعادة البك ، كل شىء تمام ..» بل إن تصاريح دفن الأموات تعطى ، ما دام المعلوم يدفع دون أن

يكشف أحد على جثة المتوفى .. فمن حرق دفن ، ومن دس له السم دفن ، ومن مات من عدوى أو وباء دفن .. والتمرجي يقول المفتش الصحة وهو يعرض كل حالة ليحصل على الإمضاء : إمضاءك الكريم يا سعادة الدكتور وأنت مطمئن .. الوفاة طبيعية أربعة وعشرين قيراط !.. فيسأله الدكتور : « أنت متأكد ؟.. » فيشير التمرجي إلى عنقه بحماسة « عيب يا دكتور !.. برقبتي !.. » وأراد يوما أن يثور على هذا الحال ، وأن يقوم بنفسه يشرف على كل شيء ، فأفهمه التمرجي أن تغيير الأوضاع سيؤدي إلى ارتباك العمل ، لأن العمل سائر على هذا النحو منذ عشرات السنين .. مفتش صحة يأتي ومفتش صحة يذهب ، والوضع هو الوضع .. لأن هذا شيء متعارف عليه ، ومفهوم في المصلحة والحكومة من قديم .. ولسنا نحن المطالبين وحدنا من دون الجميع بإصلاح الكون يا سعادة الدكتور !.. » ولم يدر الطبيب ماذا يصنع ، وسكت على مضض .. إن تغيير الوضع لا بد له من تغيير الجهاز ، وأول ما يلزم في هذه الحال هو على الأقل تغيير الممرض الذي يعمل معه .. وأين له بالممرض صاحب العقلية التي تفهمه .. إن أي ممرض جديد سيجيء بمثل

هذا الفهم وهذا الأسلوب : جمع النقود وتسليمها إلى الطبيب بعد حجز ما يستطيع حجزه لنفسه .. وخالجت مفتش الصحة فكرة عندما استيقظ ضميره : أن يلقى بهذه النقود فى وجه التمرجى ويأمره بأن يردها إلى أصحابها .. ولكن سرعان ما وجد الفكرة ساذجة .. ذلك أن الذى سيحدث هو أن التمرجى سيضع النقود فى جيبة بكل بساطة ، ولن يرد مليما واحدًا إلى إنسان ، ويستمر بعد ذلك يعمل فى الخفاء لحسابه الخاص ، بأى طريقة .. لا جدوى إذن ... ليس أمامه إلا أن يترك هذا العمل إذا كان لا يروق له .. وقد فكر بالفعل فى تركه .. ولكن أين يذهب ؟.. لا بد من انتظار فرصة مواتية .. ولكن ضيقه وقرفه ازدادا على أثر خيبة أمله فى مأمور المركز أيضًا : فقد وصل إلى علمه أن وباء تفشى فى قرية نائية من قرى المركز ، فأراد الانتقال ، وإذا بالمأمور يثبط من عزمه قائلا له : « لا تصدق الحالة بخير !.. » فأصر على الانتقال والمرور بنفسه ، واضطر المأمور إلى أن يرافقه ، وهناك رأى الحالة على أسوأ ما تكون .. ولكن المنطقة كان لها سيد هو أحد كبار الملاك ، لم يكن من مصلحته طبعًا أن ينتهى الأمر إلى وضع « كردون » حول القرية ، وحجز الفلاحين

الذين يعملون فى أطيانه .. فأوعز إلى المأمور أن يثنى الدكتور عن عزمه .. وجعلوا يتحايلون ويماطلون ويراوغون ، تضييعًا للوقت وأعدوا له وليمة ، فرفض الطعام ، فجاءوا إليه بالشاى والسجائر من الدكان الوحيد فى القرية ، وهـو أيضًا تحت إدارة المالك الكبير ، افتتحه ليبيع لأهل الناحية و لخفراء نقطة البوليس ، وكان وكيل الدايرة يتقاضى من الخفراء ما استجروه من الدكان فى أول كل شهر .. كان يذهب ومعه قائمة بأسمائهم ، يظل ينادى فيها على اسم كل خفير والمستحق عليه ، ويقبض من المرتب بعضه أو كله من الصراف مباشرة ، كما لو كان مندوب الحكومة !.. رفض الطبيب كل ما قدم إليه ، لأنه كان يعلم ما وراء ذلك .. وظل يعمل ويبحث والمأمور فى أثره يقول له مرددًا : « الحكاية لا تستحق .. والله الحكاية كلها ما تستحق اهتمامك !.. » وجاء الطبيب بالعمدة وسأله عن الحالة الصحية فقال : « ما فيش أحسن من كده !.. » فطلب إليه تقديم دفاتر المواليد والوفيات ، فأحضرها له ، فما كاد يفتحها وينظر فى صفحاتها حتى صعق من الدهشة : لقد كانت الدفاتر كلها بيضاء من غير سوء ، لم يدون فيها حرف واحد .. فصاح :

ـــ إيه ده يا عمدة !؟.. فين المواليد والوفيات ؟!..

فقال :

ـــ المواليد فى الغيط ، والوفيات فى القبر ..

فصاح به :

ـــ مفهوم .. لكن الدفاتر دى سلمت لك لأجل تقيد فيها المولود والمتوفى ..

فقال محتجًا :

ـــ أقيد المولود والمتوفى ؟!.. سبحان الله !.. انت عاوزنى أعد على ربنا ؟.. سبحانه وتعالى هو المتصرف فى عباده !..

وهنا لم أتمالك من الضحك وقلت لصاحبى الطبيب الشرعى وقد توقف قليلا عن السرد ..

ـــ مهمتك كانت صعبة حقًا ..

فاستطرد يقول : إن الصعب فى الأمر حقًا ليس هو جهل الناس بقدر ما هو فقدان الضمير والشعور بالواجب عند من ليسوا بجهلاء .. هؤلاء الذين كان يعتقد أن واجبهم هو أن يعاونوه على محاربة الجهل والمرض ، كانوا هم الواقفين فى وجهه ، يضيعون العقبات لمآربهم الشخصية .. ولم يستطيع أن يكمل شهرًا آخر فى

هذه الوظيفة .. عاد إلى القاهرة وقابل الرؤساء ، وأفضى إليهم برغبته فى الانتقال إلى عمل آخر .. وأخرج لهم محفظته وبها ثلاثمائة جنية قائلا : إنها جملة إيراده فى ذلك الشهر خارج مرتبه المشروع .. إنه يرد هذا المبلغ الكبير إلى المسئولين ؛ لأنه جاء من طريق لا يؤمن بشرعيته ..

والتفتَ نحوى صاحبى الطبيب قائلا :

ـــ أتدرى ماذا كان جواب الرؤساء ؟!.. إنك ستعجب كما عجبت .. لقد اتهمونى بالجنون .. وقالوا : إن تعيينى مفتش صحة فى الريف كان من علامات الرضى ، لأعمل على تكوين ثروة مثل غيرى من الزملاء السابقين واللاحقين ..

فسألته :

ـــ وماذا فعلوا بالجنيهات الثلاثمائة ؟.

فقال :

ـــ دسوها فى جيبى ثانية ، وهم يهدوننى بقولهم : إن معنى هذه الحركة هو الاتهام الصريح لكل الرؤساء والمسئولين الكبار ، لأنهم كلهم قد مروا بهذه المرحلة فى تفتيش الصحة بالأقاليم وكونوا ثرواتهم بنفس الطريقة ، واقتنوا العقارات والضياع كما

هى العادة !..

وأخيرًا ؟!..

أخيرًا أنقذنى الله ، أو أنقذوا هم أنفسهم من لسانى بأن عرضوا علىّ السفر فى بعثة إلى إنجلترا للتخصص فى الطب الشرعى .. قبلت طبعًا بسرور ، وسافرت بالفعل ، ودرست هناك عامين وعدت لأعمل طبيبًا شرعيًا كما ترى ..

ــ ليس لك غير مرتبك ..

ــ فقط ولله الحمد ، وعملى هذا اللذيذ الذى أحبه ، لأنه كما رأيت أنت هو شىء أشبه بالفن ..

ــ حقًا !..

قلتها وأنا شارد البال .. أفكر فى شخصية هذا الطبيب الذى رفض حياة جمع المال ؛ مفضلا الحياة من أجل العمل الـذى يحبه ... أهى شخصية مثالية شاذة ، أم أن هذه هى الشخصية الطبيعية التى يجب أن تكون لكل طبيب .. لكل طبيب حق .. الشىء المخيف حقا هو أنه قد اعتبر مجنونًا لأنه بهذه الأخلاق.. إذن هل نيأس من أن نرى يومًا الفقير يعالج بالمجان ؟.. ربما وضعت النظم التى تكفل مثل هذا العلاج المجانى ، ولكن من يضمن لنا أن الأمر

لن يسير العيادات المجانية التى ذكرها ؟.. يذهب الفقير إلى الطبيب فيعالجه العلاج الذى يستحقه الفقر والمجان ، ويفهم من طرف خفى أن هناك علاجًا آخر مخصوصًا لمن يدفع الأجر ؟.. فيضطر الفقير إلى الحصول من أى طريق على أجر العلاج الخفى المخصوص !؟.. وبهذا تمكن النظم الطبيب من أن يربح من الناحيتين : مرتب الانقطاع للعلاج المجانى ، ثم أرباح العلاج فى السوق السوداء !.. إنها ليست النظم إذن !.. إن النظم وحدها ليست هنا بكافية .. إن المطلوب أولا الأخلاق .. المثل العليا .. أن تكون شخصية هذا الطبيب المثالى هى القاعدة العامة ، وليست الشذوذ ولا الجنون !..

ولكن .. كيف يحدث هذا فى مجتمع أساسه كله قائم على اعتبار جمع المال هو القيمة المثالية .. إن الأطباء اعتادوا أن يتنافسوا ، لا فى عدد من عالجوهم بالمجان من الفقراء ، ولا فى الكشف الفنى عن علاج جديد ، ولا فى التفوق العلمى وحده ، بل فى مستويات الدخل والإيراد .. سمعت فعلا فى بعض المجالس عن طبيب يدخل على زملائه بعد انتهاء عيادته آخر النهار ليعلن إليهم فى صيحة الانتصار : « بعد إيراد هذا الشهر أكون قد

وصلت إلى العشرين ألفا !.. » من الجنيهات طبعًا .. فيرد عليه زميل : « أنت متأخر جدًا !.. من فى مثل دفعتك لـه الآن مستشفاه الخاص ، يدر عليه مثل هذا المبلغ سنويًا !.. » هذا علاوة على التفاخر بالمقامات والمكانات تبعًا لرسم العيادة .. كشف الدكتور فلان خمسة جنيهات ، وأنا لست أقل منه شأنًا .. هذا هو مقياس المستوى الفنى .. لا عند طائفة الأطباء وحدهم .. بل عند كل طوائف المجتمع .. مقياس الكفاءة عند المحامى والمهندس والممثل والمقاول ، ومقياس الاحترام للشريف وغير الشريف واجد فى هذا المجتمع : محفظة نقوده .. « معك قرش تساوى قرشًا ، معك جنيه تساوى جنيهًا » هذا هو شعار المجتمع كله ..

وخرجت من شرودى وتأملى وقلت لصاحبى الطبيب :

ــ متى يكون كل الناس مثلك ؟!..

ــ فى أى شىء تقصد ؟..

ــ أقصد .. فى أن تكون قيمة المواطن فيما يحب ويحسن من عمل ، لا فيما يباهى ويجمع من مال ؟!..

ففكر قليلا ثم قال فى شبه همس :..

ـــ لست أدرى ..

فقلت له :

ـــ حقًا .. ليس الأمرسهلا!.. لكى يحدث هذا يجب أن يغير المجتمع كله شعاره ونظرته .. ولكى يغير المجتمع مثله ونظرته وشعاره يجب أن يتغير هو نفسه من أساسه !..

* * *

كان العمل مع هذا الطبيب متعة .. خرجنا ذات يوم إلى إحدى القرى ، على أثر وصول بلاغ من مجهول يفيد بأن جثة أحد الأهالى مدفونة فى قاعة الفرن بدار إحدى الريفيات .. وقد استخرجت الجثة فعلا من تلك القاعة .. واتضح أنها لزوج هذه الريفية .. كان قد اختفى منذ مدة .. وزعمت الزوجة أنه ذهب إلى بلدة نائية تزوج فيها بامرأة أخرى .. سرنا فى التحقيق شوطًا .. و لم تجد الزوجة بدًا من الاعتراف بأن زوجها قتل فى هذه القاعة أمام عينيها .. فوجود الجثة مدفونة فى دارها لا يدع مجالا لإنكارها .. ولكنها أنكرت وأصرت على الإنكار أن لها يدًا فى القتل ... كيف حدث القتل إذن ؟!.. ومن القاتل ؟.. جماعة لا تعرفهم « كانوا ملثمين » دخلوا عليها هى وزوجها ليلا ،

وطعنوه بسكين ودفنوا جثته فى أرض القاعة ، وهددوها بالقتل إذا هى نطقت بحرف عما حدث .. لماذا فعلوا به ذلك ؟.. قالت إنها لا تدرى ، ولعله ثأر قديم لا تعرف عنه شيئًا .. فزوجها كان يقول لها أحيانًا إن له أعداء فى بلدة أخرى « ولكنه لم يصرح لها بشىء أكثر من هذا .. ولم يخطر لها هى أن تسأله ، لأن الموضوع وقتذ لم يظهر لها بالأهمية التى تسترعى الالتفات .. وكانت المرأة تتكلم بهدوء ووضوح وصراحة ، وكل ما فيها يوحى بأنها جديرة بالثقة والتصديق .. لقد بدت الحادثة منطقية على هذا الوضع .. وكل ثغرة فيها أصبحت مسدودة .. فلم يبق إلا أن نقيدها قضية قتل ضد مجهولين .. إذ لم نر هناك بصيصًا من أمل فى معرفتهم ، والمرأة لم تر وجوههم الملثمة ، ولا تعرف أصواتهم ، لأنهم من بلدة أخرى بعيدة لا تعرفها كذلك .. ولكن لماذا كتمت الأمر ، وانتحلت سببًا لاختفاء زوجها ؟.. لماذا لم تبلغ البوليس ؟.. قالت إنها خافت من تهديدهم .. فقد كان منظرهم مرعبًا وهم يقتلون زوجها !.. ثم ما هى الفائدة من إخطار البوليس ؟.. أهو سيعيد إليها زوجها حيًا ؟!.. لا بالطبع .. إذن كل ما ستجنيه من تبليغ البوليس هو تعريض نفسها لانتقام الجناة ، ولو بعد حين ..

وها هو ذا زوجها قد ذهب ضحية ثأر أو انتقام .. أفلا يكفى هذا درسًا لها .. لقد آثرت السكوت ، ورأت فيه السلامة والعافية ، وهى المرأة الضعيفة !.. ألم تحسن صنعا ؟.. فهززت رأسى .. و لم أدر بماذا أجيبها !.. كلامها معقول !.. إنها وجهة نظر مقبولة على كل حال .. وطويت أوراقى ، وعدت أدراجى ..

وانصرف صاحبى الطبيب الشرعى فى صمت إلى بحثه ، وانقطع له أسبوعًا ، غاب فيه عن نظرى .. ثم ظهر فجأة أمامى ومعه التقرير ، وهو يقول باسمًا :

— اسمع يا سيدى نتيجة الفحص !..

فقلت له بغير اهتمام كبير ، كأنى متوقع أنه لن يأتى فى الأمر بجديد :

— تفضل !..

فقال بهدوء متواضع :

— أولاً القتل لم يحدث فى القاعة ، بل حدث فى الغيط .. ثانيًا لم يحدث القتل بسكين ، بل حدث بالخنق بواسطة حبل من الليف ، ثم وضعت الجثة فى زكيبة من زكايب القطن حملت على جمل إلى القاعة حيث دفنت .. ثالثًا المرأة اشتركت قطعًا فى القتل

مع شخصين آخرين على الأقل ..

فصحت من الدهشة :

ـــ أأنت أيضًا تؤلف روايات ؟!..

فقال ضاحكا :

ـــ و لم لا .. إنى أؤلف فعلا .. ولكن فقط .. على أساس من عناصر حقيقية ملموسة ..

ـــ قل لى بالله كيف عرفت أن القتل حدث فى الغيط ؟..

فأجاب :

ـــ لأنى وجدت الكف اليسرى لجثة القتيل قابضة على أعواد دقيقة متكسرة من أعواد القطن .. لقد فوجئ وهو فى الغيط وسط زراعة قطنه .. ولو كان فى داره ليلا لما كان هناك سبب لاستمرار قبضه على هذ الأعواد ..

ـــ و كيف عرفت أنه خنق بحبل ليف ؟..

قال :

ـــ معرفة الخنق بسيطة جدًا .. وأنت لا تجهل ذلك .. ولعلك تقصد لماذا خنق بحبل ليف بالذات ؟.. هنا العقدة !... والجواب أنى لاحظت حول عنقه بضعة خيوط دقيقة لا تكاد تـرى ،

وبفحصها تحت الميكروسكوب تبين لى أنها خيوط ليف مما يستعمل فى جدل حبال المواشى ..

قلت له :

ـــ وكيف عرفت أن الجثة نقلت فى زكيبة على جمل ؟..

قال :

ـــ هذا مجرد استنتاج .. لأنى أبصرت جملاً فى زريبة الدار ، كما أبصرت أكياس قطن مفروشة فوق الفرن ... وبما أن القتل حدث فى الغيط ، فما من وسيلة لنقل الجثة إلى القاعة لدفنها إلا بوضعها فى الزكيبة وحملها على الجمل ، والزكيبة والجمل موجودان فعلاً فى الدار ..

قلت له :

ـــ إلى هنا كل هذا جائز .. لكن ما دليلك على اشتراك الزوجة فى القتل ؟..

فأجاب على الفور :

ـــ أما هذا فمؤكد .. وإليك الدليل القاطع : وجود شعر لرأس امرأة فى قبضة القتيل اليمنى التى وجدتها .. قد تشنجت وماتت على هذه الخصلات .. وبمضاهاتها بشعر الزوجة .. أثبت

الفحص أنها لها .. والذى حدث هو أن القتيل قد قاوم بالطبع قاتليه ، وأثناء المقاومة أراد أن يقبض على رأس المرأة .. أما أنها كانت مع شخصين آخرين على الأقل ، فهذا واضح من أنه لا يمكن لامرأة بمفردها القيام بكل هذه العملية ، وأستبعد أن يكون معها شخص واحد آخر فقط ، فالقتيل ضخم فارع القوى ، وليس من السهل على رجل وامرأة وحدهما التغلب عليه وخنقه بحبل !..

قلت وأنا أتعجب :

ـــ شىء عجيب !.. أعطنى التقرير !..

وقمت فى الحال بفتح باب التحقيق من جديد ، وأمرت بالقبض على الزوجة ، وواجهتها بالتهمة ، وصورت لها الجريمة كما حدثت ، طبقًا لما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى ، وإذا بالمرأة تذهل وتنهار ، وتأخذ فى الاعتراف ، وتقص علينا تفاصيل الجريمة كما وقعت بالفعل .. فإذا أنا أذهل بدورى .. فقد كان كل ما تصوره الطبيب الشرعى وخلته أنا تأليفًا روائيًا إنما هو حقيقة واقعة .. فالقتلة كانوا رجلين معها .. هما شقيقاها .. وتم القتل فعلا بالخنق بحبل الجمل الليف .. بعد غروب الشمس .. فى غيط

القتيل.. ذهبت المرأة مع شقيقيها إلى الغيط ليساعدوا الزوج على تحميل أكياس قطنه على ظهر الجمل ، وكانوا قد تآمروا على انتهاز غفلة منه ، وخلو الغيطان المجاورة من أصحابها ، وعودة الفلاحين مساء مع مواشيهم إلى دورهم ، للانقضاض عليه وخنقه وحمله فى زكيبة قطن فارغة لدفنه فى الدار .. لقد رفضوا فكرة ذبحه بشرشرة البرسيم ، أو فلق رأسه بالفأس ، خشية أن يسيل دمه فى الغيط ويلوث ثيابهم ، ويحتاج إخفاء الجريمة إلى مشاكل ومتاعب ووقت طويل .. فاستقر رأيهم على هذه الطريقة ، وكادت تنجح حقًا فى إخفاء كل أثر للجثة والجريمة والقتلة ، لو لم يطلع لهم من تحت الأرض صاحبنا الطبيب الشرعى ، فيهتك سترهم بفنه العجيب .. ليس من المهم بعد ذلك أن نعرف سبب الجريمة .. إنه سبب فارغ تافه من تلك الأسباب التى يضخمها الجهل فى الريف ، فتؤدى إلى القتل .. إنه غيظ الزوجة من زوجها الذى كان ينوى التزوج عليها من امرأة فى بلدة أخرى ، وفزعها من أن يذهب بالقيراطين المملوكين له إلى الضرة الجديدة ، ويتركها بلا عائل ..

***

وجلسنا بعد العشاء فى شرفة النزل ، بعد أن فرغنا من هذه القضية ، أنا وصاحبى الطبيب الشرعى ، نتجاذب الحديث ..

قلت له :

ـــ أتعرف أن عملك فعلاً هو عمل فنى ؟..

فقال باسمًا كمن يرى أنى أقول شيئًا بديهيًا لا جديد فيه ولا معنى له :

ـــ طبعًا !.. أنا كادر فنى يا أستاذ !..

فقلت موضحًا :

ـــ لا .. ليس هذا ما أقصد .. إنى أقصد أنه عمل مشابه من بعض النواحى لعمل الروائى والمسرحى والمصور والموسيقى والشاعر ..

ـــ تقصد الخيال ...

ـــ الخيال فى أعمق معانيه : وهو القدرة على تشكيل الحقيقة من العناصر المتفرقة .. تصور الأشياء تصورًا يشكل منها حياة نابضة .. تركيب أجزاء صغيرة متناثرة غير ملاحظة تركيبًا يبرز خلقًا كاملا للحقيقة .. إنك من بضعة خيوط ، وخصلة شعرات استطعت أن تعيد بناء الحقيقة !.. الفنان لا يفعل أكثر من ذلك ،

ببضعة ألفاظ أو ألوان أو أنغام يستطيع أن يعيد تركيب حقيقة هذا الوجود الإنسانى !.. ولم يصغ هو إلى قولى ، فقد أرهف أذنه إلى صوت موسيقى تتسرب إلينا من خلال باب نصف مغلق فى الجانب الآخر من الشرفة .. فأرهفت أذنى أنا أيضًا وقلت :

ـــ هذه افتتاحية الناى المسحور لموزار ..

فالتفت الطبيب إلى الجهة الآتى منها الصوت وقال :

ـــ إنها حجرة المدرس الأيرلندى !..

ـــ عن إذنك !..

قلتها وأنا أنهض ميمما شطر هذه الحجرة .. فإن سحر موزار على روحى لا يقاوم .. لم تكن صلتى بهذا الأيرلندى وثيقة .. كل ما بيننا من علاقة لم يتجاوز تلك الأحاديث العادية التى يتبادلها النزلاء على مائدة العشاء .. ولكنى صممت فى تلك اللحظة على أن أوثق صلتى به من أجل موزار .. واقتربت من حجرته وأرسلت البصر من خلال الباب نصف المغلق ، فشاهدته مستلقيًا على المقعد الكبير مادًا ساقيه فوق الكرسى الخيزران ، وإلى جانبه فوق المنضدة فونوغراف على شكل حقيبة ، كان يعتبر طرازًا حديثًا نادرًا فى ذلك العهد .. طرقت الباب طرقًا خفيفًا ، سمعه

فانتفض ناهضًا على قدميه .. فلما رآنى بدت فى عينيه نظرات العجب والتساؤل ، ومد يده فى الحال يسكت أسطوانة موزار .. وخفت أن تذهب به الظنون بعيدًا.. ويخيل إليه أنى جئت بصفتى الرسمية لأمر يتصل بالنيابة والقانون .. فأسرعت أقول له باسمًا ، وأنا أشير إلى الفونوغراف :

ـــ أرجوك !.. فلتستمر الأسطوانة !.. إنى ما جئت إلا من أجلها !..

فعاد الهدوء والصفاء إلى وجهه ، ودعانى إلى الجلوس وهو يقدم إلى كرسيًا ، ويقول فى ابتسامة ترحيب :

ـــ أتحب هذه الموسيقى !!..

ـــ جدًا وخصوصًا موسيقى موزار ..

ـــ من حسن الحظ أن عندى منها الكثير ..

وأشار إلى مجموعات عديدة رص بعضها فوق بعض ، ثم أخذ يتناول منها ويناولنى لأشاهد ، وإذا كل مجموعة داخل غلاف من الجلد تحوى سمفونية كاملة .. يا للعجب !.. ما كل هذا العدد لسمفونيات موزار !.. وما كل هذه العناية فى جمعها !.. لقد بهرنى ما رأيت .. إن أغلب هذه الأعمال لم أكن قد اطلعت عليها

من قبل .. فما أتيح لى سماعه لموزار لم يجاوز بعض الافتتاحيات ، وقليلا من الأوبرات ، وسمفونية واحدة أو اثنتين على الأكثر .. ولم أكن على علم إطلاقًا بأن موزار كتب كونشرتو للفلوت والأوركستر .. وها هو ذا بين يدى هذا الكونشرتو فى مجموعة كاملة داخل غلاف جلدى جميل !.. خيل إلىّ أنه مرّ وقت طويل وأنا لاهٍ عن الرجل صاحب الحجرة ، أقلب مجموعاته ذاهلا لا أشعر بما حولى .. إلى أن وجدت يده تمتد فى رفق إلى ما فى يدى من أسطوانات ، وهو يقول :

— تحب أن تسمع شيئًا منها بالذات ؟..

فأفقت وفهمت أنه أراد أن يخرجنى من هذا الموقف الذى طال ، فقلت له وأنا خجل :

— نعم .. أكون شاكرًا !..

— هل وقع اختيارك على شىء ؟..

فلم أعرف ماذا أختار ؟.. كل ما عنده يغرى بالاستماع .. بل إنى فى حاجة إلى سماعها كلها .. كلها ولكن بالطبع وقته لن يسمح لى بأكثر من أسطوانتين أو ثلاث .. ولا ينبغى أن أطيل جلوسى فى حجرته إلى حد يضايقه ، وحسبى أنى تطفلت

واقتحمت عليه خلوته ، وجعلته يترك جلسته المريحة المستلقية المتراخية ، ليتكلف لى حسن الاستقبال والضيافة .. تركت له هو الاختيار .. فاختار السمفونية القصيرة من المقام الصغير .. وما كادت تنتهى وأنا غارق غرقًا فى المتعة ، حتى أغلق الفونوغراف ، كأنما أراد أن يسد علىّ الطريق .. وقال وهو يبتسم :

— بديعة ؟!.. أليس كذلك ؟..

— جدًا ..

— إنه ليسرنى أن تشاركنى الاستماع كلما سمح بذلك وقتك ..

— بكل سرور !.. بل إن هذا ليسرنى أنا ويسعدنى بنوع خاص !

قلتها بإخلاص وكأنها نابعة من أعماق قلبى ، وصافحته شاكرًا وانصرفت . وصرت بعدئذ أحوم حول حجرته آملا أن يدعونى إلى الاستماع .. ولكن شاء سوء الحظ أن يشغل فى تحضير امتحانات نصف العام ، وفى تصحيح الأوراق وغير ذلك من المشاغل التى صرفته عن الموسيقى .. فلم أعد أسمع من خلال بابه صدى لصوت .. بل إن بابه نفسه أصبح مغلقًا عليه ، فأغلق

بذلك دونى باب الرحمة !.. وفى ذات صباح مررت ببابه فوجدته مفتوحًا .. ولم يكن هو بالحجرة ، فقد علمت أنه انصرف مبكرًا ليكون فى المدرسة فى تمام الثامنة ، لحضور الحصة الأولى ، أو لأعمال المراقبة فى الامتحان ، لست أدرى .. ولم يكن هذا بالمهم عندى .. المهم هو أن حجرته خالية ، وقد لمحت فيها الفونوغراف فوق المنضدة ، ومجموعات الأسطوانات مرصوصة ، وكأنها تنادينى .. كان الإغراء شديدًا .. لم أستطع المقاومة .. فدخلت حجرته ، وأخرجت كونشرتو الفلوت لموزار ، وجعلت أستمع ..

تكرر منى هذا الفعل .. حتى كدت أنتهى من سماع كل ما فى المجموعات بهذه الطريقة .. أترقب خروجه المبكر إلى عمله ، فأدخل متلصصًا إلى حجرته ، قبل أن يدخل إليها الخادم لتنظيفها وترتيب فرشها .. فأسمع على عجل سمفونية أو اثنتين ، ثم أخرج إلى عملى أو إلى جلستى التى تفتتح عادة فى التاسعة ..

ولكن ضميرى أخذ يوبخنى على هذا الفعل الشائن .. رويت القصة لصاحبى الطبيب الشرعى .. فقال يهون من شأن الموضوع :

ـــ وماذا فى ذلك ؟.. هل نقصت قطعة من أسطوانات الرجل ؟..

ـــ تقريبًا !.. لقد انتفعت بها واستهلكتها ، بدون إذنه .. ودخلت حجرته بدون علمه !.. استهلكت متاعًا مملوكا له .. إنه نوع من الاختلاس .. تصور .. وكيل النيابة هو الذى يقوم بهذا التلصص والاختلاس ؟!..

فأطرق الطبيب يفكر قليلا ، ثم قال :

ـــ كان يحسن أن تستأذنه ..

ـــ لم تتح لى الفرصة !.. لقد وجدت نفسى فجأة أمام الإغراء ، وجهًا لوجه !..

ـــ فى الواقع أن التصرف من حيث الشكل منتقد .. لكن من حيث الجوهر فهو عمل مشروع .. إن كل ما أردت أنت هو الاستمتاع الفنى ..

ـــ وأى استمتاع !..

قلتها وأنا أتذكر تلك النشوة التى ما غمرنى فى حياتى مثلها قط .. لماذا تضاعف خجم تلك المتعة وأنا أختلسها اختلاسًا من حجرة ليست لى ، وباب نصف مغلاق ، أتطلع من خلاله تطلع

الخائف القلق ؟! أفضيت بهذا الشعور إلى صاحبي الطبيب ، وسألته رأيه فقال :

ــ حقًا !.. ما أجمل اللحن الذى يأتينا عفوًا من بعيد عبر نافذة الجيران !.. هناك دائمًا علاقة بين البعد والحجم .. ففي الماديات يصغر الحجم مع البعد ، ولكن العكس يحدث فى المعنويات .. إن المعنويات والروحيات يكبر حجمها مع البعد !..

ــ هل ترى أن أصارح هذا الأيرلندى بما حدث .. وأشرح له قوة الإغراء التى أوقعتنى ، وأسأله الصفح !..

ــ يكون أحسن !.. والأفضل من كل هذا أن تبادر فتشترى لنفسك فونوغرافًا ، وتقتنى أسطوانات ، حتى لا تعود مرة أخرى .. وتصبح من أرباب السوابق !..

ــ فكرة !..

لفظتها باقتناع وقوة ، وقد صممت على تحقيقها .. وما وافى اليوم التالى حتى كانت خطة التنفيذ قد اكتملت .. لن أنتظر حتى أذهب إلى القاهرة .. فلست أدرى متى أذهب .. وليس من السهل طلب أجازة : لا بد أن يكون فى هذا البندر محل لبيع الفونوغرافات .. من الذى يدلنى !.. لا أحد غير ذلك المخلوق

العجيب !.. إنه فنان هو أيضًا .. فنان بالروح والسليقة والاستعداد ، وإن كان فنه لا يتخذ شكلاً ولا إطارًا .. إنه « سيد دومه » ماسح أحذيه النيابة والمحكمة !.. تلك الشخصية التى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الهيئة القضائية فى هذا البندر .. إنه الدليل القضائى الحى المتحرك فى هذه المدينة .. من أراد التحرى عن أى معلومات خاصة بأحد القضاة أو أعضاء النيابة أو الكتبة والموظفين ، فما عليه إلا أن يسأل « سيد دومه » ، فيقول لك : فلان بك القاضى أو عضو النيابة أو فلان أفندى كاتب الجلسة أو سكرتير التحقيق ؛ كان هنا سنة كذا ، وطباعه كيت ، ومن عاداته أنه يجلس فى المكان الفلانى فى الساعة الفلانية ، ويحب فلانًا ويكره فلانا ويفضل هذا النوع من الطعام أو الشراب ، ويدخن هذا الصنف أو ذاك من السجاير وهكذا ، وهكذا .. ولكن القيمة الحقيقية لسيد دومه هى أنه قاضى الحاجات كلها لكل الموظفين وحلاّل المشكلات .. إذا أردت شيئًا مستعصيًا أو نادرًا فاطلب إلى سيد دومه يبحث لك عنه ويأت بالطلب فى ساعتين .. وإذا كسر لك متاع أو آلة أو عدة .. ساعة أو وابور غاز أو طاحونة بن ، أو ماكينة خياطة أو دراجة أو قلم حبر ، فهو

الذى يقوم بإصلاحها بنفسه .. عبقريته فى إصلاح الآلات — وخاصة الدقيقة — تكاد تكون قد ولدت معه ، بدون دراسة ولا تعليم .. إن درجة تعليمه لا تتعدى فك الخط .. إنه يكتب ويقرأ ويفهم كل شيء .. ولا أحد يعرف أين تعلم هذا .. إن كل ما فى الصحف من أخبار حوادث يعرفها فى المحطة بعد وصول قطار الجرائد .. وفى أقل من ساعة يكون قد مر على مكاتب الموظفين يخبرهم بما يهمهم منها ، وما يتعلق على الخصوص بحركة الترقيات والتنقلات .. وهو يدخل كل صباح على أكبر موظف وأصغر موظف على السواء ، بدون استئذان .. ما يشعر الواحد منا إلا وحذاءه بين يدى سيد دومه ، يمسحه فى صمت بالورنيش المناسب ، ولا يتكلم إلا إذا طلب منه الكلام ، أو آنس فراغًا من الموظف .. ومحال أن تبدو منه حركة أو لفظ يعطل المشغول بالعمل ..

جلست إلى مكتبى ذلك الصباح منتظرًا مجيء سيد دومه ، حلاّل المشكلات .. وما دقت ساعته المعينة حتى ظهر من الباب بعد طرقه طرقا خفيفًا كعادته دون انتظار الإذن بالدخول .. ومشى مشيته الخفيفة ؛ كمشية القط الأليف ، وقبع بجوار الحذاء

وشمر كم سترته — إذا كانت تسمى سترة .. فإن ملابسه الغربية لا يمكن أن توصف .. فهي خليط عجيب من سروال أو بنطلون قديم لا يعرف مصدره مع سترة شبه عسكرية مما كان يتسلل من معسكرات جيوش الاحتلال ، قد رقعت ترقيعًا أخرجها عن الصفات العسكرية والمدنية جميعًا ، وأصبحت لها صفة خاصة بسيد دومه وحده ، وفوق رأسه غطاء صوف أشبه بالطاقية ، ولكنه ليس قطعًا بالطاقية .. إنه شيء سمعت بعضهم فى البندر يسميه « كلبوش » وقد اتخذ هو أيضًا صفة الشخصية المستقلة عن أى رداء آخر للرأس ، إنه رداء رأس سيد دومه وكفى !..

جعل يمسح حذائى دون أن ينبس بحرف أو ينظر إلىّ .. ولكنه فوجئ ولا شك بصوتى يقول له باهتمام :

— اسمع يا سيد يا دومه !.. تقدر تشترى لى فونوغراف ؟..

— فونوغراف بنفير ؟..

— نفير ؟!.. لا .. لا .. فونوغراف حديث بشنطه !..

— حاضر !..

أجاب بهذه الكلمة الواحدة .. ثم مضى وعاد بعد قليل يعلن إلىّ أن طلبى موجود .. ولكنه يستحسن أن أذهب لأختار بنفسى

ما يعجبنى .. ودلنى على الدكان ، وقادنى إليه .. فإذا أنا فى دكان بقال .. فالتفت إليه منتهرًا :

— بقال ؟!.. دكان بقال ؟!. أنا قلت لك فونوغراف ؟!..
أنت فاهم كلمة فونوغراف يعنى إيه ؟!

فنظر إلىّ نظرة كلها عتاب ، وقال :

— وانا جاهل للدرجة دى يا بيه ؟..

وأسرع إلى صاحب الدكان ، وحادثه قليلا .. فإذا به يكشف عن ستارة فى ركن من أركان المحل ، ظهر خلفها صف به عديد من أجهزة الفونوغراف مختلفة الأنواع ، من قديم ذى نفير إلى حديث بحقيبة .. فعجبت .. ثم علمت بعدئذ أن هذا المحل — وهو أكبر محل بقالة فى المدينة — لا يبيع البقالة وحدها ، بل يعرض أصنافًا أخرى مختلفة : من أقمشة جوخ ، إلى أحذية ، إلى جرادل ومكانس إلى فونوغرافات وأسطوانات .. وأخذت الفونوغراف الذى أعجبنى ولم يكن ثمنه يجاوز الجنيهين .. لأن الطلب قليل فى الريف لمثل هذا الطراز .. الكل هنا يفضل الطراز القديم ذا النفير الضخم يملأ العين !.. وكان لا بد لى معه من بضع أسطوانات ، للتجربة على الأقل .. فعرض علىّ البائع أن أتخير من

بين كوم من الأسطوانات القديمة مختلفة الأحجام فجعلت أقلب فيها .. لم أتوقع بالطبع أن أعثر على موزار أو بيتهوفن أو هايدن .. وجدت المرحومين الشيخ « يوسف المنيلاوى »والشيخ« سيد الصفطى » و « عبد الحى أفندى حلمى » .. فانتقيت للأول : « فتكات لحظك أو سيوف أبيك » و الثانى « الحب صبحنى عدم » وللثالث « حلالى بلالى وافانى الحبيب » ..

عدت إلى النزل وخلفى سيد دومه يحمل ما اشتريت .. وما أن وصلت إلى حجرتى حتى بادرت إلى أدارة الفونوغراف الجديد بأسطوانات أولئك الأعلام فى فن غنائنا العربى .. وعجبت أن أذنى لم ترفضهم ، بل استقبلتهم هم أيضًا بالترحاب .. ما أبعد الشقة حقًا بينهم وبين هايدن وموزار وبيتهوفن .. بل إن أى مقارنة بين هؤلاء وأولئك تعتبر ضربًا من المستحيل .. فهذان لونان لا يمكن أن يتقابلا .. لأن منطق كل منهما يقـوم على أساس مختلف .. ومع ذلك استطعت لدهشتى أن أحب هذا وذاك .. ثم زالت الدهشة الأولى وبدأت أفسر نفسى .. أفسر ظاهرة تقبلى للنقيضين .. ما من تفسير إلا أنى تذوقت كلا منهما بطعمه هو لا بطعم الآخر .. وقسته بمقياسه لا بمقياس الآخر ولا بمقياس

واحد للاثنين .. إن اقتناص أنواع الجمال فى الفن كاقتناص أنواع السمك فى البحر !.. كل له شبكة خاصة .. فإذا استخدمت شبكة واحدة للجميع أفلتت منها أنواع أخرى كثيرة ..

ولم تتم فرحتى بالفونوغراف الجديد .. فلم أكد أديره فى اليوم التالى بحضور صديقى الطبيب على أسطوانة « فتكات لحظك ..» ولم يكد يعلو صوت المطيب صائحًا : « الله الله يا شيخ يوسف يا منيلاوى ! ..» ولم يكد غناء المطرب الكبير يلعلع بمطلع القصيدة ، حتى سمعنا حشرجة أخذت تمتد وتستطيل حتى أصبحت أنينًا خافتًا انتهى بوقوف الإبرة وقوفًا تامًا .. ماذا حدث ؟.. لقد انكسر « الزمبلك »!..

ولعنت الفونوغراف وماركته وبائعه والذى كان السبب وهو سيد دومه بجلال قدره .. وأرسلت فى طلبه فى الحال فحضر .. فابتدرته صائحًا :

— الحق علىّ .. أنا الغلطان .. أشترى فونوغراف من محل بقالة ؟!..

فقال مأخوذًا :

— حصل خير ؟!..

فأشرت له إلى الفونوغراف :

ـــ حصل يا سيدى أن « الزمبلك » مصنوع من المكرونة ، لا من الحديد !.. انكسر بعد يوم وليلة .. تفضل عاين !..

فأخرج من جيبه مفكًا صغيرًا يحمله فى جيب سترته الواسع مع بعض آلات وأدوات دقيقة يحملها دائمًا .. وجعل يفك غطاء الفونوغراف حتى كشفه ونظر داخله وأخرج الزمبلك المكسور .. ونظر إلىّ وقال :

ـــ حاجة بسيطة !..

وغادرنا فى سرعة البرق قبل أن نتمكن من استمهاله أو استيضاحه ، وغاب مقدار نصف ساعة ، ثم عاد إلينا ومعه شريط « خرده » طويل رفيع من المعدن أو النحاس ، لا أحد يدرى من أى شئ خلعه أو انتزعه ، استطاع أن يلويه ويلفه على بعضه لفًا وثيقًا .. سألناه :

ـــ ما هذا ؟..

فقال :

ـــ زمبلك عمولة !..

وأخذ يضعه فى جوف الفونوغراف ، ويثبته بالمفك ، ثم

ركب الغطاء ، وانتهى من المهمة ، ونحن ننظر إليه دون اعتراض على شيء مما يفعل .. فقد كنا يئسنا منه ومن فونغرافه .. ولم نر جدوى فى الكلام .. ونفض يديه ثم مسحهما فى سترته واستأذن للانصراف قائلا : « خلاص !.. » ونظرنا إلى الفونوغراف متشككين :

— أممكن لهذا الشيء أن يدور بعد الآن ؟!..

فرد فى ثقة واطمئنان :

— جربوا !..

وجربنا .. وإذا الفونغراف يدور حقًا ، وعلى أحسن ما يكون !.. بل حدث ما هو أعجب : لقد ظل هذا « الزمبلك الخردة » صناعة سيد دومة متينا مكينًا قوى النبض ، قوة قلب فتى صلب لا يضعف ولا يشيخ ، مدى عشرين عامًا تنقل فيها معى من بلد إلى بلد ومن مصير إلى مصير ، وأسمعنى خلالها من روائع السمفونيات والمؤلفات الغربية ولوامع البشارف والأغانى فى الموسيقى الشرقية مالا يقع تحت حصر .. إلى أن اقتنيت جهاز راديو شغلنى وألهانى وأنسانى وجود الأنيس القديم ، فإذا هو يتنحى فى تواضع ، ويفسح الطريق للجهاز الجديد على

استحياء .. وإذا هو ذات يوم قد اختفى ، لا أدرى والله كيف !.. اختفى فى صمت وهدوء ، واختفت معه عشرة دامت عشرين عامًا ..

كلما ذكرته ذكرت معه سيد دومه ، وذكرت الطبيب الشرعى ، وذكرت ذلك النزل فى ذلك البندر من بنادر الأقاليم ، بل ذكرت فوق كل ذلك أن فى الدنيا أشخاصًا يجرى فى دمائهم روح الفن وهم لا يشعرون !..

٤

الوزير جعفر

عندما كنت وكيلاً لنيابة البندر بمدينة « ... » من عواصم الأقاليم ، لم يكن شيء ينغص علىّ حياتى غير رئيس النيابة .. فقد كان رجلا ليس له فى الدنيا غير هوايتين : تدخين الشيشة ، وإيذاء الغير .. كان الشر للشر هو مذهبه الفنى فى الحياة ، ولا يعنينى هنا تطبيق مذهبه فى مجال العمل الرسمى .. فهذا أمر قد يكون له فى نظره ما يبرره .. فالقسوة على المتهمين ، وتضييق الخناق عليهم فى كل وجه من أوجه دفاعهم ، والتلذذ بمرآهم وهم يقعون فى حبائل أسئلته ووسائل استجوابه المشروعة وغير المشروعة ، والذهاب أحيانًا إلى حد تعذيبهم بالجوع والعطش طوال أيام التحقيق .. كل ذلك داخل فى نطاق عمله الذى لا شأن لى به هنا .. إنما أقصد بالشر : معاملته لنا نحن معاونيه ومرؤوسيه وزملائه .. خصوصًا

من كان يظنهم بغير سند أو ظهير من عظيم أو وزير .. وكنت عنده من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير عملهم ، فكان يخفف أثقال العمل عن أصهار الكبراء من الزملاء ، ليلقيها على كاهل ضعيف مثلى .. ما من ليلة تركتنى أنام فيها بملء جفنى فى بيتى .. فقد كان يرسل إلىَّ خفراء الدرك يوقظوننى لأضبط واقعة حريق تافهة ، هى أغلب الأحيان من اختصاص معاون الإدارة .. وما كان يطيق أن أسأله يومًا أسافر فيه للراحة أو الاستجمام .. مرة واحدة سمح لى فيها بليلة واحدة أمضيها فى الإسكندرية .. ولست أدرى كيف سمح بذلك .. فقد كان شارد الفكر وقتئذ من غير شك .. سألته الإجازة وهو يدخن الشيشة على قهوته المعتادة فى ميدان المديرية .. فقال :

— الصبح تكون هنا ..

فأكدت له أنى لا أحتاج إلى غير سواد الليل .. فأنا مولع بسماع الموسيقى السمفونية .. وعلمت أن جوقة موسيقية تعزف برنامجًا حافلا لبيتهوفن فى كازينو سان استفانو .. فتحرقت شوقًا لسماعها .. أنا المحروم منذ زمن طويل من متع الفن الرفيع الذى أحبه ، وكادت تقضى عليه حياتى الشاقة بين جرائم الأرياف

وجهالة أكثر الزملاء .. وسافرت وما كدت أستقر ساعة فى الإسكندرية حتى أفاق الرئيس من إغفاءته ودخان « شيشته » وكبر عليه الأمر ، واستهول حصولى على يوم راحة ، فأطلق فى أثرى إشارة تليفونية مستعجلة إلى المحافظة يدعونى فيها إلى العودة فى نفس الليلة — ولو بأى قطار بضاعة متهيئ للسير — بحجة قيام مظاهرات فى المدينة تستوجب مباشرة التحقيق .. وعدت أدراجى دون أن أذهب لسماع الموسيقى .. فوصلت المدينة فى أول الليل .. فلم أجد بالمدينة أثرًا لمظاهرات ولا لحوادث .. وجعلت أستفسر فى أقسام البوليس المختلفة فما ظفرت بغير جواب واحد : كل شىء هادئ فى المدينة ، ولم تتحرك نملة ... ولم يحدث ما يستوجب حضورى .. فأدركت أن غريزة الإيذاء هى وحدها التى تحركت فى نفس رئيس النيابة ..

* * *

مرت الأيام هكذا كئيبة ثقيلة ، إلى أن جاء صيف شديد القيْظ ، وجاءت معه فى تلك المدينة فرقة تمثيلية على رأسها ممثل قديم ، كنت أعرفه وأقدره يوم كانت لى مسرحيات تمثل فى جوقة عكاشة بالقاهرة .. فرحت فرحًا شديدًا بمجىء هذه الفرقة ..

فقد كانت نسيما من أنسام الفن الجميل يرطب صحراء هذه الحياة الجافة .. فقلت فى نفسى : لابد من الذهاب الليلة لمشاهدة التمثيل ومقابلة صديقى الممثل القديم « عمر أفندى » كما كنا ندعوه .. وعدت إلى منزلى ، وكان فى طرف من أطراف المدينة ، لأتغدى وأنام قليلا استعدادًا للسهر .. لا فى المسرح وحده .. بل فيما بعد المسرح من تحقيقات وانتقالات وحوادث ، مما سيخبئه لى القدر القاسى بالتآمر مع رئيس النيابة الذى لا تنام عينه عن أذية .. لا سيما إذا عرف أن فى المدينة فرجة .. وأنى ذاهب أمتع نفسى ...

تناولت غدائى .. واستلقيت على فراشى ، وكان الجو حارًا ، وكنت البارحة ساهرًا فى تحقيق قضية ابتلانى بها بالطبع هادم راحتى .. فلم تمض دقيقة حتى كنت أغط فى نوم عميق .. ولكن نومى لم يطل ، فقد أفقت منه مذعورًا على صوت طرق شديد على الباب .. نهضت فوجدت ما هو منتظر : أحد سعاة النيابة أرسله الرئيس ليدعونى إليه فورًا .. فسألت الساعى وأنا أتميز من الغيظ :

— يطلبنى الآن ؟.. فى هذه الساعة ؟.. ما السبب ؟..

فقال الساعى وهو ينشف عرقه المتصبب بكمه :

ـــ والله ما أعرف ..

نظرت فى الساعة فوجدتها لم تجاوز الثالثة بعد الظهر إلا بقليل .. ماذا يصنع هذا الرجل الآن ؟.. وفى مثل هذا الحر الشديد ؟.. إنى أعرف أنه لا ينام بعد الظهر على الإطلاق .. هو ولا ريب يدخن الشيشة على القهوة .. ولكن الساعى أخبرنى أنه دخن شيشته وفرغ منها على خير ، ثم ذهب إلى مكتبه فى دار النيابة وأيقظ السعاة وأحضر الكتبة من بيوتهم ، وشرع يخلق لهم الأعمال الشاقة خلقًا ، منتهزًا فرصة القيظ المهلك .. فكرت لحظة مليًا .. ثم نظرت إلى الساعى المسكين وهو يبلع ريقه الناشف ، بعد أن قطع الطريق الطويل الأجرد بين دار النيابة وبينى ، فى هذه الشمس المحرقة .. ثم قلت له :

ـــ الدنيا حر بره ؟..

فأجاب على الفور :

ـــ جهنم !..

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت له :

ـــ اقعد واسترح .. عندك هنا قلة ماء باردة !..

فما تمالك الساعى أن صاح فرحًا :

ـــ الله يعمر بيتك !..

وتركته ودخلت إلى حجرتى ، واستلقيت على فـراشى كما كنت ، وأغمضت عينى ، كأنما لم يحدث شىء و لم يأت أحد ، واستغرقت فى نومى العميق .. ومضى وقت قد يجاوز نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة أخرى .. فاستيقظت فوجدت ساعيًا آخر من سعاة النيابة قد أرسله الرئيس وقد استبطأ الساعى الأول .. فابتدرت الساعى الثانى قائلا :

ـــ الدنيا حر فى السكة ؟..

فقال وهو يلهث :

ـــ موت أحمر !..

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت :

ـــ اقعد واسترح مع زميلك .. واشرب من القلة الباردة !..

وتركته يشكرنى من أعماق قلبه .. وعدت إلى حجـرتى وفراشى ونومى .. ومر وقت لا أدرى مداه .. قد يكون أيضًا حوالى نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة ثالثة .. وإذا بساع ثالث يوفده رئيس النيابة ليستعلم عن الخبر .. فخرجت إليـه

وبادرته بالسؤال المعهود :

— كيف حال الطقس فى الطريق ؟..

فقال وهو يستند إلى الحائط من الإعياء ، وقد كان أكبر من سابقيه سنًا وأضعف صحة :

— هلاك والعياذ بالله !..

فأشرت إلى الدهليز وقلت :

— اقعدوا كلكم استريحوا .. الدهليز رطب ، والقلة باردة !..

فجعل الساعى العجوز يستمطر الدعوات المباركات .. فتركته ودخلت حجرتى واستلقيت على فراشى .. ولكنى لم أنم هذه المرة .. بل جعلت أحصى عدد سعاة النيابة الموجودين الآن تحت تصرف رئيس النيابة .. وأقول فى نفسى : إنهم ثلاثة لا أكثر ، وقد أرسلهم كلهم .. وإنه لا شك سيفطن عما قليل إلى أن من يرسله لا يعود .. فما النتيجة ؟.. النتيجة أحد أمرين : إما أنه يرسل إلىّ نقطة بوليس بأكملها دفعة واحدة .. ولن أستطيع بالطبع إجلاسها فى الدهليز إلى جانب القلة .. وإما أن يأتى هو بنفسه ليكشف الخبر .. والأمران ولا ريب محرجان غاية

الحرج .. والأصلح أن أجد لنفسى مخرجًا بترك البيت فى الحال حتى لا أواجه موقفًا يعرضنى لضرر أفدح .. فنهضت لساعتى وارتديت ملابسى .. ومررت بالسعاة فى الدهليز وقلت لهم :

... البيت بيتكم ... ابقوا فى مكانكم هنا هادئين ناعمين .. ولا تعودوا لرئيس النيابة الآن فيعنفكم ويعاقبكم .. انتظروا حتى يتحسن الجو وانعموا بالساعة التى أنتم فيها .. وإذا جاءكم أحد أو سألكم سائل فقولوا إنكم هنا فى انتظارى .. وإنكم لم تجدونى فى منزلى .. وليكن ما يكون .. وعلى رأى المثل الريفى : « لقد لغمطنا رأس الحمارة طين » !..

خرجت من منزلى وأنا أقول فى نفسى : ما دمت قد رفعت راية العصيان ضد رئيس النيابة ؛ فلأفعل ما بدا لى مدة عشر ساعات على الأقل .. فهو الآن لا يعرف لى مقرًا .. فأنا مختف عنه .. هارب من بيتى .. ولم أترك عنوانًا .. وهو أمر لا يجب أن يحدث لعضو من أعضاء النيابة العمومية .. فحركة عضو النيابة كحركة عضو الجسم ؛ لا بد أن يعرف الرأس خط سيرها فى كل حين .. ماذا أفعل بوقتى الآن ؟.. سأتنسم الحرية أولاً .. آه ما أجمل الحرية !.. ولو لبضع ساعات !.. حرية التنقل دون أن تترك

لأحد عنوانك .. حرية الحركة دون أن يكون فى أثرك ساع أو خفير .. الآن أستطيع أن أعيش فنانًا .. كما كنت فيما مضى بضع ساعات .. سأذهب إلى التمثيل فى المساء .. ولن يكون هناك رئيس النيابة بالتأكيد .. فأنا أعرفه تمام المعرفة .. إنه يحتقر التمثيل كل الاحتقار .. وأذكر — يوم رآنى أحقق فى قضية كان أحد شهودها من الممثلين — أنه قال لى : « قبل أن تسمع شهادة هذا الممثل حرر له محضر تشرد » نعم .. إنه لم يذهب إلى التمثيل فى حياته .. ولن يذهب الليلة ؛ بل سيكتفى بالجلوس فى قهوته يدخن شيشته ، ويفكر فيما ينزله بى من كوارث بعد هذه الفعلة .. وماذا يهم ؟.. حسبى أنى سأعيش فى جو الفن ساعات تنعش نفسى مدى أعوام ..

مشيت فى الطرقات على غير هدى فى انتظار المساء .. وكانت المدينة تعج بأهل الريف القادمين من القرى المجاورة والبعيدة .. فنحن فى أسبوع مولد من أهم موالد المدينة .. ولم أر من الحكمة أن أجلس فى قهوة .. فقد يعثر بى رسل النيابة الذين قد يطلقهم بحثًا عنى فى جميع قهاوى البلد .. وخطر لى بادىء الأمر أن أذهب إلى مسرح البلدية ، حيث تمثل الفرقة هذا المساء ،

فأسال عن الممثل عمر أفندى .. ولكنى أعرف عادات الممثلين ... فهو الآن ولا شك نائم فى فندقه ، استعدادًا لسهر الليل .. فمن الخير ألا أزعجه .. وليكن لقاؤنا بعد انتهاء التمثيل .. لم يبق أمامى إذن إلا التسكع فى شوارع المدينة وساحة المولد ، بدون وجهة ولا مقصد .. وهو مالا يمكن أن يقع لوكيل نيابة فى مدن الأقاليم إلا فى غفلة من الزمن ومن رئيس نيابته .. سرت فى الطرق أنظر إلى الناس والأشياء نظرات بريئة صديقة ، لا تخفى اشتباهًا ولا ارتيابًا .. نظرات مواطن بين مواطنين .. لا نظرات محقق بين متهمين .. ولأول مرة منذ اشتغالى بعملى القضائى أشعر بإنسانيتى .. أشعر بأنى جزء من جماعة .. لا فرد متسلط على جماعة ..

ووقع نظرى على الإعلانات الكبيرة تكسو الحيطان ، عن فرقة التمثيل وعن رواية « هرون الرشيد » التى تعرض الليلة ، فرجعت بى الذاكرة أعوامًا طويلة إلى الوراء .. يوم كنت أسير فى شوارع القاهرة أتأمل إعلانات جوقة عكاشة فى مسرحيتى المسماة « العريس » .. كان اسمى بالخط الصغير جدًا فى أسفل الإعلان يملؤنى زهوًا ، ويخيل إلىّ أن كل من فى الشارع قد أعطى من قوة

البصر ومن شدة الاهتمام ما جعله يقرأ هذا الاسم الصغير .. لعلى أسخر من تلك الفكرة اليوم .. ولكن ماذا يهم ؟.. لقد كنت فى ذلك الوقت أو من بكل سذاجة الشاب الأول أنى فنان .. وهذا الإيمان ليس بالشيء القليل .. إنه على الأقل كان يمنحنا شعورًا عجيبًا لذيذًا ، قلما تسطيع الحياة أن تعيده على هذا النحو فى أية مرحلة أخرى من مراحل العمر ..

وطفقت أستعرض فى رأسى صورًا مما جرى أيام إخراج مسرحيتى .. لقد كان عمر أفندى هو المتولى أمر إخراجها .. ولن أنسى حدبه على هذه المسرحية وعنايته بكل شئونها .. كان من أبطالها الممثل القديم المرحوم « محمد بهجت ».. وكان عليه أن يرتدى بذلة فاخرة تليق بدور الثرى الذى يمثله .. فلما اقترب موعد التمثيل جاء لابسًا خير ثيابه ، فإذا هى فى نظر المخرج لا تصلح لدور ثرى .. فصاح فيه عمر أفندى : « بذلتك هذه تلبسها لتقول بها أمام المساجد : « لله يا أسيادى !.. » فأجاب بطل الرواية : « هذه ملابسنا بصفتنا عظماء الممثلين ، فإذا أردتم أن نكون عظماء من الأغنياء ؛ فألبسونا من عندكم » !.. وكان الجواب مقنعًا .. وسعى عمر أفندى لدى مدير الفرقة زكى

عكاشة فأذن بشراء بذلة جديدة « جاهزة » من محل فى العتبة الخضراء ، على حساب الفرقة ، ليرتديها بطل الرواية .. وظهر « محمد بهجت » فى تلك الليلة على المسرح فى بذلة أنيقة فخمة تليق بثرى من خيرة الأثرياء .. وانتهى التمثيل .. وجاء اليوم التالى ، فإذا محمد بهجت يختال بالبذلة الجديدة فى شوارع القاهرة ، فضبطه مدير الفرقة صائحا فيه : « ما هذا ؟.. اخلع حالا هذه البذلة .. هذه بذلة الشغل تلبسها فقط ليلة الرواية فوق خشبة المسرح ، ثم تسلمها بعد ذلك لتوضع فى المخزن مع الأكسسوار ».. شأنها شأن ملابس عطيل وسيف قلب الأسد وتاج ملك النمسا — »

***

جاء الليل وحان موعد السهرة ، فذهبت إلى مسرح البلدية ، فوجدت العساكر محيطة ببابه ، فأدركت أن مدير المديرية سيشرف الحفلة .. فانسللت إلى شباك التذاكر وحجزت لى مقعدًا فى القاعة وسط الصفوف .. ودخلت وجلست .. وجعلت أتصفح وجوه النظارة .. كان أغلب الجلوس فى المقاعد الخلفية من القرويين والذين نزلوا المدينة لمناسبة المولد .. فقد

كثرت الزعابيط واللبد .. أما الصفوف الأمامية والوسطى ؛ فكانت تعج بالموظفين والأعيان ـــ ولم يلبث المدير أن دخل مقصورته فى صحبة وكيل المديرية وحكمدار البوليس ، فدبت حركة ، وسمعت همهمة بين النظارة واتجهت الأبصار إلى مكان الحكام .. ثم علا صوت الدقات الثلاث فوق خشبة المسرح ، وارتفع الستار عن رواية هرون الرشيد .. وظهر عمر أفندى فى دور الوزير جعفر .. فعرفت فيه الممثل العظيم الذى أنضجته السنون .. وما كادت الحفلة تنتهى حتى خرجت باحثًا عن باب الممثلين ، وقابلت صديقى الممثل القديم .. فكانت مفاجأة له وأى مفاجأة .. وانتظرته حتى خلع ثياب الوزير ، وأزال المكياج ، وخرجنا معًا نجوب المدينة ونتذكر الماضى ...

* * *

مشينا فى ساحة المولد بعد منتصف الليل .. وقد اشترينا كعكًا وبيضًا ، وجعلنا نأكل ونحن نسير بغير هدف ونضحك من أعماق القلب .. ولم نلتفت إلى شىء من متاجر المولد ولا ملاهيه ، بل كان كل همنا الحديث فى الفن .. قلت لعمر أفندى : احك لى عن ماضيك البعيد الذى لا أعرفه .. قص علىّ

كيف تعلقت بفن التمثيل ؟.. اغمرنى فى جو الفن !.. حدثنى عن التمثيل فى أول عهدك به ؟.. كيف كان حاله ؟..

فلفظ ضحكة مكتومة ساخرة نعرفها منه ، وقال : لو فتحت هذا الموضوع فلن ننتهى منه قبل الفجر ..

فقلت له : فليكن !.. وهل لدينا أهم من هذا ؟..

فقال لى : أليس لديك شغل غدًا ؟.. إنك لم تخبرنى ما عملك اليوم ؟..

والواقع أنى لم أكن قد أخبرته بعد بوظيفتى .. فقلت له : سأخبرك فيما بعد عما أعمل .. أما الساعة فنحن للفن .. أخبرنى كيف أحببت الفن !..

فتنهد عمر أفندى طويلا ثم قال : اسمع يا سيدى !.. أقول لك حالا .. وقضم عنق كعكته الثانية ، وقال :

ــ كان ذلك فى عام ١٣٠٠ هجرية .. وقد علق بذهنى التاريخ الهجرى .. لأن نشأتى الأولى كانت نشأة دينية .. فقد كان والدى رحمه الله من أئمة المساجد .. فألحقنى بمكتب خان جعفر لأتعلم القراءة والكتابة وأحفظ القرآن الشريف ، فيكون لى من بعده عمله بالمسجد .. وقد ألبسونى منذ صغرى العمامة

والجبة والقفطان ، وصيرونى شيخًا صغيرًا اسمه « الشيخ عمر » ولكن شاء الحظ السيء أو الحسن — لست أدرى — أن أسمع وقتئذ من بعض أصدقائى عن شيء اسمه « التشخيص » وزينوا لى مشاهدته .. فذهبت معهم إلى بولاق ، ورأينا رواية يقال لها : « الملك بختنصر » يمثل فيها محمود حبيب ؛ فبهرنا التمثيل والغناء والملابس المزركشة بالقصب .. أشياء لم نشاهد لها مثيلا فى حياتنا .. ولم أدفع فى كل ذلك غير قرش واحد ، أجر الدخول فى الترسو .. ورجعنا إلى منازلنا فى حى سيدنا الحسين ونحن نقلد الممثلين طول الطريق .. ووالينا حضور التمثيل كل ليلة لمدة شهرين والرواية لا تتغير .. وأصبح التمثيل شغلنا الشاغل وألهانى عن دروسى ، فكنت ألقى الضرب والتعنيف من أهلى ، ولكن ما يكاد يأتى المساء حتى أنسى كل آلام الضرب وأهرع إلى مشاهدة التمثيل ... وسمعنا بعدئذ عن جوقة القرداحى ، التى تمثل على مسرح الأوبرا الخديوية ، وكان من بين أعضائها الشيخ سلامة حجازى .. لكن واأسفاه !.. كان أجر الدخول أربعة قروش فى « الترسو ».. فلم أستطع مشاهدتها غير ليلة واحدة .. كانت الرواية التى يعرضونها فى تلك الليلة هى « عايدة » ... لقد كنت

أشاهدها وأنا كالمذهول .. ما كل هذه المناظر والملابس والتماثيل والعسكر والأحباش .. عدت إلى البيت و لم أنم فى ليلتى .. لقد قضى الأمر وتمكن منى الداء وصحت فى فراشى من أعماق نفسى : لا بد أن أكون ممثلا !..

فقلت لعمر أفندى وأنا أقضم كعكتى : وقد صرتَ بالفعل ممثلا قديرًا ..

فقال : انتظر .. انتظر .. بعد أى جهاد ..

فقلت له : نعم .. أخبرنى كيف بدأت ؟..

قال : فى تلك الأيام ظهرت جمعيات تمثل فى الأوبرا الخديوية .. فرجوت من صديقى الذى قادنى إلى التشخيص أن يحتال لنا حتى نشاهد عن قرب جمعية من هذه الجمعيات .. فمضى ثم عاد بعد يومين يبشرنى بالحصول على إذن بحضور « بروفة » ، إحدى المسرحيات ، و لم يكد الليل يقبل حتى كنا فى صالة البروفة نرقب مشدوهين نسيم أفندى غبريال المنبراوى المخرج الفنى العظيم ، المتخصص فى ترتيب المواكب والزفف وانتقاء الملابس والألوان .. كان فى تلك الليلة يدرب ممثلين على رواية « جنفياف » التى سيمثلونها بعد أسبوع بدار الأوبرا فى حفلة

خيرية تحت رعاية الخديوى توفيق باشا بإشراف سعادة باسيلى بك مفتش الأسماك المصرية .. ولقد رأيت المخرج يعلم شابًا دور خادم فى الرواية ، مكررًا له الجملة مرات ، والشاب لا يفقه ، حتى ضجر منه المخرج ويئس ، وأنا أغلى من الغيظ ، حتى انفجرت أخيرًا صائحًا كالمجنون : « أنا أمثل هذا الدور يا افندى !.. » فدهش الحاضرون لجرأتى وحماستى .. ورحب المخرج بالفكرة .. وأمر الشاب أن يعطينى الدور لأحفظه .. فقلت لـه : « إنى حفظت الدور من مجرد الإصغاء ».. فعجب الجميع لـذلك ، وطلبوا إلىّ أن أتقدم وأؤديه .. فأديته فى الحال كما كان يعلمه المخرج منذ لحظة ، وإذا بى أسمع تصفيق الاستحسان يدوى فى المكان ، وصياح الحاضرين « برافو !.. برافو ! » إلا الشاب المسكين فقد أخذ يبكى ويقول محتجًا : « إزاى أتعب فى حفظ الدور وتعطوه لواحد جاى النهاردة ! »..

وجاءت ليلة التمثيل فى الأوبرا ، فدخلتها وأنا كالمحموم أهذى من الفرح « وعجبت لاتساع المسرح وكثرة الحجرات والمرايا والسلالم والأبواب ، ولكنى ما شعرت قط بخوف ولا هزة ولا رعشة ، ومثلت دورى ، فسمعت التصفيق ولم أر أحدًا ..

حتى فطنت إلى أن الصالة غارقة فى الظلام ، وأن المسرح وحده هو المضاء .. فلا يستطيع من فوقه من الممثلين أن يميز وجود الجمهور فى القاعة .. كان نجاحى تلك الليلة لا شك فيه ، على الرغم من صغر الدور .. وفتح لى هذا النجاح الباب .. لا أقول إلى المجد دفعة واحدة ، بل إلى قبولى فى جمعيات التمثيل بغير عناء ، فما كاد يمضى أسبوع حتى تلقفتنى جمعية تمثيلية تدعى : « جمعية الاتحاد الوطنى » كانت تتأهب لإخراج رواية « هند بنت الملك النعمان » تأليف الشيخ محمد بصره أحد مشايخ الأزهر الشريف .. ووزعت الأدوار ، وأسند دور « هند » بنت الملك إلى الشيخ محمد حامد الطالب بالأزهر الشريف والكاتبٌ فى محل تجارى بالغورية ، ليقوم به تمثيلاً وغناء بصوته الرخيم .. أما أنا فكان نصيبى دور الممثلة الثانية .. واستمرت البروفة أربعة شهور كاملة ، تمكنّا خلالها من إتقان أدوارنا .. وكان كل فرد منا يحفظ ، لادوره فقط ، بل كل أدوار الرواية .. كان كل شىء معدًا أحسن إعداد .. وإذا الجمعية تفاجأ بحضور زائر أجنبى هو الموسيقار الكبير « أدرينكو تورتى » يعرض عليها الاشتراك معه فى تنفيذ فكرة خطرت له .. هى إخراج رواية عربية يضع هو

موسيقاها ويغنيها أعضاء الجمعية .. فقد بلغه أن من بينهم مغنين ذوى أصوات ملائكية .. ثم يترجم الرواية إلى الإيطاليـة .. واشترط أن يظهر فى الرواية المحمل الشريف ، وأن تظهر فيها بعض العادات المصرية .. كانت صفقة رابحة للجمعية .. إذ أبـدى الرجل استعداده لبذل المال بسخاء ، وإخراج الرواية على مسرح الأوبرا فى فصل الشتاء ليشاهدها السياح .. وجاءت مسألـة البحث عن المؤلف .. فقلنا من يكون غير الشيخ « محمد بصره » مؤلفنا العظيم ، فقدمناه إلى الموسيقار الإيطالى ، فاتفق معه على الموضوع .. و لم يمض بالفعل شهر حتى تم تأليف رواية « المحمل الشريف » .. وهنا قامت فى وجوهنا عقبة ، لقد أصر الموسيقى الإيطالى على أن تكون ألحان الرواية موافقة لموسيقاه الإيطالية التى وضعها .. وكان هذا مستحيلاً لما بين التلحين العربى والغربى من فروق .. خصوصًا فى تأدية الأذان والإنشاد والأذكار والشعر العربى الرصين الذى نظمه المؤلف الأزهرى !.. ولكن الرجل كان شديد العناد ، محتما أن تكون الألحان كما وضعها هو بلا تغيير .. ولا تبديل .. و لم ننجح فى إقناعه ، وخفنا أن تفلت من أيدينا الصفقة .. فأذعنـا وسلمنـا أمرنـا لله ، وشرعنـا نجرى

التدريبات .. وسعى الرجل من جهته حتى حصل على التصريح بالتمثيل على مسرح الأوبرا ، وبدأ ينفق المبالغ الطائلة فى إعداد الملابس والمناظر .. وكان لا بد من ظهور ميدان المنشية والقلعة على المسرح ، فأعد كل هذا بالخشب، لا بالقماش أو الورق ، واتفق مع ديوان الحربية على استعارة مائة من الجنود السوارى بخيولهم؛لتظهر على المسرح،واستأجر عددًا عظيما من الجمال والحمير وعربات الحنطور والكمبيل والكارو وتختروانات ومزمار ، وكل ما كان يرى فى مهرجان المحمل ، حتى باعة الذرة والترمس والقرداتية .. ستقول لى كيف يمكن إظهار كل هذه الجموع على المسرح ؟.. المسألة بسيطة : خلف الأوبرا باب كبير مرتفع قليلا عن الشارع يؤدى إلى المسرح ، فإذا وضع أمام هذا الباب عارضة من الخشب المتين ذات منحدرين على شكل سلم مزدوج، أمكن لهذه الجموع أن تجتاز المسرح وتخرج منه ، وتكرر هذه العملية عشرات المرات ، وأخيرًا تم كل شيء .. ولم يبق إلا أمر واحد تذكرناه : هو مواكب مشايخ الطرق بالأعلام والبازات والأثواب المختلفة .. فأشرنا على المسيو أدينكو أن يذهب إلى السيد البكرى ويستأذنه فى ذلك ، وبهذا تكمل كل مظاهر المحمل .. فلم

يبطئ ، وأسرع إليه وعاد بإذنه وهو يتهلل بشرًا .. ولم يبق بعد ذلك غير تحديد الموعد وطبع التذاكر ، وانتظار أكياس الذهب تتدفق فى جيوب الإيطالى .. وإذا بخطاب خاص يصله من السراى ، فتوجه وهو يطير من الفرح لمقابلة الخديوى توفيق ، ممنيا النفس بالرعاية التى سيسبغها سموه على حفلاتة .. ولم تطل غيبته .. فقد عاد إلينا بعد قليل .. فرأينا ويا لهول ما رأينا .. رأينا هذا الموسيقى الإيطالى الممتلىء فرحًا يعود إلينا شاحب الوجه مقصوم الظهر ، فقد صدر إليه الأمر العالى بعدم تمثيل الرواية لما فيها من تعريض بالدين .. وضاعت آمال الرجل مع أمواله ، وتبددت أحلامنا وتشتتت جمعيتنا ..

ولكن حب الفن المتمكن فينا لا سبيل إلى القضاء عليه .. لقد عدت بعدئذ إلى فرقة محمود حبيب التى كانت أول ما شاهدت من التمثيل ، فالتحقت بها وطفت معها فى رحلاتها بالأقاليم .. وما كنا نستطيع السفر بالسكة الحديدية ، لكثرة النفقات ، فكنا نسافر فى المراكب .. نشحن فيها شحنًا مع صناديق الملابس أخشاب المناظر والستائر ، وكنا ننام على ظهر المراكب ، وكلما رسونا على بلد طلعنا نمثل فيها ثم نعود إلى مركبنا .. وكان للنيل فى ذلك الوقت

قرصان كقرصان البحر،يغيرون على المراكب الراسية فيسلبون ما فيها..ففى ذات ليلة ومركبنا راس على شاطئ مدينة فى الصعيد، هجم علينا القرصان ، فتركنا المراكبية مذعورين وقفزوا إلى الشاطئ ، و لم ندر نحن الممثلين ماذا نصنع أمام هؤلاء اللصوص المسلحين .. فطرأت فكرة على المرحوم محمود حبيب أنقذتنا .. فقد أمرنا فى الحال بارتداء ملابس الجنود التى يرتديها الكومبارس فى إحدى الروايات ، ووزع علينا بنادق المسرح الخشبية ، ووقفنا جميعًا صفوفًا على ظهر المركب ، وقد أشعلنا « الكلوب » فما كاد اللصوص يروننا حتى ظنوا أن الحكومة أرسلت العساكر للقبض عليهم ؛ ففروا هاربين .. مثل هذه الرحلات كانت تنهك قوانا من التعب ، ولكنها كانت تعود علينا بالربح الوفير .. أو على الأصح صاحب الفرقة .. أما الفن فلم أشعر بمعناه الحقيقى إلا عندما التحقت بفرقة المرحوم الحداد .. كان للحداد آراء فى الفن هى وحدها التى وجهت حياتى الفنية .. لقد علمنا أشياء لم تكن تخطر لنا على بال .. كان يوصينا دائمًا باتباع الطبيعة .. كان يقول لنا : « كونوا كما أنتم فى الحياة » .. حتى الصوت ما كان يسمح لنا برفعه عن الحد الذى تجيزه الطبيعة .. وكان يجلسنا فى المقاصير

البعيدة أثناء إلقائه ، فإذا طلبنا إليه أن يرفع صوته لنسمعه ، قال : « على الممثل أن يتجنب الخروج عن الطبيعة وعلى الجمهور أن يحسن الإصغاء ».. ولكن الفن الجيد لا يجد دائمًا غير العقبات التى تحول بينه وبين الإقبال .. فقد كان مسرح الحداد فى حى ممتلئ بدور الرقص والغناء والطبل والزمر .. فكنا نبدأ التمثيل وسط الضجيج والصياح والنداء على أبواب تلك الملاهى : « هنا الست نزهة المغنية ».. « هنا الست شفيقة القبطية » .. وجمهورنا يصيح بنا أن نرفع أصواتنا ليسمع ، والمرحوم الحداد مُصر على التزام الطبيعة..حتى مل الجمهور،وزهد فى الروايات الفنية التى كنا نعرضها ، فلم يمض قليل حتى قلّ الإقبال وهبط الإيراد ..

وألف القرداحى وقتئذ فرقة جديدة ، فانضممت إليها ، وعرض علّى دور « السجان » فى رواية تسمى « الظلوم ».. فأجدت التمثيل ليلة عرض الرواية إلى حد جعل الزملاء جميعًا يشاهدوننى من بين الكواليس .. وجاءنى القرداحى يقول بلهجته الشامية :

— منيح !.. منيح !.. لكن ما بتعلى صوتك .. الترسو إلو حق يسمع شو بتقول ..

فأفهمته أن التمثيل المتقن الجيد هو التمثيل الطبيعى ... وأعدت عليه ما لقننى إياه الحداد قائلا :

— يا أستاذ .. الواجب أن الصوت يكون حسب الطبيعة ..

فهرش القرداحى رأسه ونظر إلىّ ساخرًا وقال :

— ها الطبيعة بتقول بلاش الترسو ؟!..

ولم أجد نفعًا من الاسترسال فى رأيى ؛ فسكتّ .. وجاءت الليلة التالية ، واستعدوا لتمثيل رواية « عطيل ».. فأقبل علىّ القرداحى يقول :

— الليلة بتشوف .. شو بيصير التمثيل بعطيل .. وبتعمل زيى .. وبتشوف الفرق بينى وبين الحداد ..

وكان المساء .. وشاهدت الفرق حقًا بين تمثيل القرداحى وتمثيل أستاذى الحداد ..

ظهر القرداحى فدوى المكان بالتصفيق .. ثم سمعته فسمعت قصف المدافع يهز أركان المسرح ، وتردد صداه الجدران .. وهو يصول ويجول ولا يترك موضعا على الخشبة إلا انتقل إليه ، مشوحًا فى الهواء بذراعيه .. هذا كان فنه .. أما معاملته ، فقد كان من أبغض الأشياء إلى نفسه دفع أجور الممثلين .. كان من

زملائى فى فرقته ممثل يطلقون عليه اسم « الشيخ كوارع » وهو رجل غريب الأطوار ، غضب على القرداحى يومًا لمماطلته فى دفع مرتبه ، فترك المسرح طول النهار ، وخرج إلى الأسواق حاملًا قدرة عرقسوس ، وربط حول وسطه حزامًا من الصفيح تدلت منه الأكواب ، وصار يبيع للمارة كوب الشراب ومعه لحن ينشده من ألحان الروايات بربع قرش .. أما من يدفع له فى الكوب نصف قرش فكان يغنيه توشيحًا ، وصادفه القرداحى فى السوق بهذه الحالة ، فصاح به :

— شو بتعمل ؟.. يخرب بيتك !..

فأجابه على الفور :

— هات فلوس والشغل يبقى فقط جوه التياترو !..

* * *

مضى عمر أفندى يحدثنى هكذا عن بدايته الفنية وأنا مستغرق فى الإصغاء ، لا أقاطعه ولا أراجعه ، وقد نسيت نفسى وما حولى .. ما من شىء كان يخرجنى من هذا الجو إلا شبح خفير أو عسكرى بوليس يدنو منا .. فقد كنت أجذب يد صاحبى بقوة لأبتعد به عن الشبح الذى جاء يطلبنى ، فيما كنت أظن ، وكانت

دوريات البوليس كثيرة فى تلك الليلة من أجل المولد ، فكثرت علامات انزعاجى .. وكان كلما قطع صديقى الممثل حديثه ليعرف مابى ، طرحت عليه سؤالا يشغله .. قلت له أخيرًا :

ـــ لن أنسى فضلك فى إخراج روايتى « العريس » ..

فقال :

ـــ الفضل فى نجاحها للمرحوم محمد بهجت .. كان حقًا ممثلا عظيما !..

وأطرق عمر أفندى لحظة .. ثم رفع رأسه وأخذ يتذكر كيف شاهد بداية محمد بهجت حدث ذلك أيضًا فى جوقة القرداحى .. فقد جاء ذات يوم أحد أفرادها يقدم ممثلا جديدًا لم يعتل بعد خشبة المسرح .. فأسند إليه دور خادم فى رواية « أنيس الجليس » دور صغير جدًا ، كل ما يطلب من ممثله أن يدخل المسرح ليقول جملة واحدة « على الباب يا مولاى قاصد ».. هذا كان دور محمد بهجت الأول .. ولكنه ما كاد يتلقاه حتى ذهب إلى شاطىء البحر ، ليقف أمامه الساعات ، مستلهمًا جمال الطبيعة : متأملاً الأمواج فى هديرها ، والرياح فى صفيرها ، ناصبًا قامته الطويلة ، نافخًا صدره الضخم ليلقى جملته الرهيبة : « بالباب يا مولاى

قاصد ».. هكذا كان يقضى الأيام حتى جاءت ليلة التمثيل .. فاستعد أتم استعداد .. وجعل يطيل النظر فى المرآة وهو يلقى جملته الهائلة بصوت مجلجل خطير .. وأفراد الجوقة من حوله ينظرون إليه ضاحكين فى أكمامهم ضحكات سخرية يخالطها إشفاق .. ودنت اللحظة الكبرى ... ودخل الممثل الناشىء المسرح ليلقى كلمته المأثورة « بالباب يا مولاى قاصد » .. وهو معتقد ولا شك أن الجمهور إذ يسمعها سينفق الليل فى التصفيق ويستغنى عن بقية الرواية ..

وصمت عمر أفندى قليلاً .. ثم أردف قائلا : هذا بالطبع شعور كل مبتدىء .. وقد مررنا جميعا بهذه المرحلة ..

ولمحت عينى حينئذ عسكرى بوليس يتدلى من يده شىء أبيض ، وهو مقبل علينا .. فما شككت فى أنه يقصدنى ، وأن ما بيده ورقة بيضاء ، لعلها إشارة تليفونية أو خطاب من رئيس النيابة .. ففزعت وجذبت صاحبى من ذراعه جذبة كادت تخلع مفاصله ، فصاح بى :

— مالك ؟.. مالك ؟!..

— ابعد بنا عن البوليس !..

قلتها وأنا أجتاز به الطريق بعيدًا عن العسكرى .. وكان رجل البوليس قد اقترب من أحد مصابيح الغاز ، فنظرت إلى الشىء الأبيض فى يده ؛ فإذا هى رؤوس فجل بيضاء تتدلى من حزمة يحملها ولا ريب إلى عياله .. فعاد الاطمئنان إلى نفسى .. ولكن الشكوك والريب كانت قد خامرت صديقى الممثل .. فوقف ونظر إلى وجهى الذى يغمره ظلام الليل ، كأنما يريد أن يستشف سرى .. قال :

ـــ إنت خايف من البوليس ؟.. قل لى السبب ؟!

فقلت له :

ـــ بكرة أقول لك .. خلينا الساعة للفن !..

فلم يزده هذا الجواب المتهرب إلا ارتيابًا وقلقًا .. فتسمر فى الأرض ولعن الفن وسيرته .. وأبى أن يتحرك قبل أن يعرف سر خوفى من البوليس .. فإن لم أصارحه بالحقيقة فهو فى حل من تركى والخلاص بجلده قبل فوات الأوان .. فهو قد يكون فنانًا بوهيميًا .. ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام من طريدى الحكومة ، ولا من المجرمين أو المتسترين على الإجرام ..

فقلت له ضاحكا :

ـــ الإجرام ؟!..

فقال فى خوف :

ـــ طبعًا .. لا تؤاخذنى !.. حد يهرب من البوليس .. إلا من يكون قتل قتيل أو سرق سريقة !..

فقلت له بغير غضب :

ـــ قصدك إيه يا عمر أفندى ؟..

فقال فى الحال :

ـــ قصدى إنك تقول لى الحق .. بينى وبينك ، شغلتك ؟..

فقلت وأنا أخفى ضحكى :

ـــ شغلتى ؟.. أقول لك الحق ؟.. بينى وبينك شغلتى لها علاقة بالإجرام والمجرمين ..

فصاح الرجل مذعورًا :

ـــ يا حفيظ يا رب !..

فما تمالكت نفسى من الضحك .. فابتعد عنى خطوتين فى حذر وهو يقول مودعًا :

ـــ سلام عليكم !..

ثم أطلق ساقيه للريح .. فأسرعت خلفه أصيح به :

ـــ انتظر .. انتظر يا عمر أفندى .. انتظر ..

فأشار إلىّ بيده علامة الابتعاد وقال دون أن يقف :

ـــ انت غرضك تسبب لى داهية فى آخر الليل .. وانا غريب عن البلد ..

فصحت به راجيًا :

ـــ كلمة واحدة .. اسمح لى .. كلمة واحدة .. أحكى لك كل شىء ؟..

فاستدار نحوى وهو يجد فى السير وقال :

ـــ أنا لا أعرف حضرتك .. ولا سبق لى معرفة بحضرتك ..

وجرى فى الشارع ، وأنا أركض خلفه لألحق به ، حتى كاد منظرنا يستلفت الأنظار ، ويوقعنا فى مآزق نحن عنها فى غنى .. وبالفعل .. لم تمض لحظة حتى طلعت علينا داورية من أحد الشوارع الفرعية ، على رأسها جاويش .. ظهرت فجأة أمام عمر أفندى المنطلق كالسهم .. فما شعر المسكين إلا وهو بين يدى الجاويش . يقبض عليه ويصيح به :

ـــ بتجرى كده ليه الساعة دى !..

فسمعت عمر أفندى يقول فى صوت المولول :

— آدى اللى كنت حاسب حسابه !..

ووقفت أنا بالطبع فى مكانى أترقب ما يحدث فرأيت الجاويش يقذف بعمر أفندى وسط الداورية قائلا لرجاله :

— احجزوه ..

وهنا استدار صديقى القديم ، ونظر خلفه يبحث عنى بعينيه ويصيح :

— ما اعرفوش ؟ والله ما اعرفه ..

فقال الجاويش الفطن سائلا :

— مين هوه !..

وأخذ يرسل نظراته إلى الجهة التى يتطلع إليها سجينه .. فأبصرنى واقفًا فى مكانى لا أدرى ما أصنع .. فأشار إلىّ بخشونة وصرامة مناديًا :

— تعال هنا يا جدع انت !..

فلم أجد بدًا من الطاعة .. فتقدمت نحوه ، ولكن بخطى ثابتة .. فما كاد يتبين وجهى ، حتى عرفنى ، فقد رآنى ولا ريب كثيرًا فى جلسات المحاكم ، وعند مصاحبته للمتهمين أمام الاستجواب فى قضايا التلبس .. وإذا هو فجأة يدق الأرض

بنعليه ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ، ويقول متلعثما :

ـــ لا مؤاخذة يا سعادة البك !..

ولا أدرى كيف أصف ما ارتسم على وجه عمر أفندى وقتئذ من علامات العجب والدهشة والذهول .. كانت المفاجأة سريعة وبغير تمهيد فلم يبد عليه أنه فهم شيئًا مما رأى .. إلى أن سمعنى أقول بلهجة الآمر :

ـــ انت حاجز الافندى ده ليه يا شاويش ؟..

فقال الجاويش فى الحال :

ـــ أمر سعادتك يا أفندم !..

فأمرت قائلا :

ـــ سيبه !..

فأطلق سراحه .. ووقف على رأس الداورية سائلا بأدب :

ـــ خدمة ثانية يا افندم ؟..

فقلت وأنا أشير بيدى علامة الانصراف :

ـــ لا .. خلاص ..

فدق الجاويش الأرض بنعليه مرة أخرى ، وأدى التحية العسكرية ، وأمر الداورية بالسير .. فسارت فى طريقها وتركتنا

فى مكاننا .. وأنا أشيعها بنظرى حتى ابتعدت .. بينما لبث عمر أفندى جامدًا فى موضعه كأنه تمثال .. فدنوت منه ودعوته إلى استئناف السير ، وأنا أنظر إلى وجهه وأقول :

ـــ مالك ؟..

فأجاب وكأنه يصحو من حلم :

ـــ مالى إيه ؟.. أنا مش فاهم حاجة .. فهمنى .. حضرتك تبقى إيه فى البلد !..

وعندئذ أخبرته بكل شىء عن عملى ووظيفتى وهربى من رئيس النيابة ، فضحك من فكرة ارتيابه فى أمرى .. واطمأن قلبه .. ومضينا فى حديثنا الأول عن الفن .. غير أنى لاحظت أنه بدأ يحادثنى بلهجة يخلطها شىء من التحفظ والتأدب .. لهجة بعيدة عن ذلك التبسط الذى كان يرسله على السجية منذ قليل .. فأدركت أنى لم أعد فى نظره الفنان القديم الذى كان يخالطه بغير كلفة قبل دقائق .. ودقت عندئذ إحدى ساعات الحائط فى حانوت قريب دقتين ، فعلمنا أننا الآن فى تمام الثانية صباحًا .. فقال لى :

ـــ أظن الوقت تأخر على سعادتك ..

ورنت كلمة « سعادتك » فى أذنى رنينًا غريبًا ، ملأ قلبى أسفًا ووحشة .. لو أنها كانت على الأقل مبطنة بالسخرية لارتاحت نفسى .. ولكنها كانت صادرة عن شعور جدى بأن حاجزًا بيننا قد وضع .. فأردت أن ألفت نظره إلى الأمر ، فضحكت لكلمته ثم تجاوزت التلميح إلى التصريح ، موضحًا له ما قام بنفسى .. لكنه فيما يظهر لم يقتنع ، ولم يرد أن يصدق أن وكيل النيابة الذى يأمر البوليس بالحجز والإفراج ، وتحييه الداورية بالتحية العسكرية ؛ يمكن أن يحتفظ فى أعماق نفسه بقلب فنان .. وأردت أن أصف له مهنتى فى جوهرها الحقيقى الذى أراها عليه ، فقلت له : إنها ليست مجرد قبض وحبس وتهم وأحكام .. بل هى مسرح وتمثيل وجمهور .. ففتح فمه عجبًا :

— وضح لى من فضلك ؟!..

— أوضح لك ..

وجعلت أصف له جلسة المحكمة التى أحضرها مع القاضى .. إنها قاعة متسعة بها مقاعد للجمهور ، شأنها فى ذلك شأن قاعات التمثيل .. ثم هنالك المنصة التى تجلس عليها هيئة المحكمة ويتطلع إليها بأبصارهم جمهور الحاضرين .. إنها تشبه المسرح التى تتطلع

إليها عيون المشاهدين .. ثم هنالك الروايات التى تعرض .. إنها فى جلسات المحاكم لا تقل غرابة ومتعة عنها فى قاعات التمثيل .. وروايات المسارح يقدمها المؤلفون .. وروايات المحاكم يقدمها النائبون والوكلاء العموميون .. أى أنى فى عملى القضائى أقوم — على وجه التقريب — بما كنت أقوم به فى عملى المسرحى .. بل إنك إذا فتحت ملف قضية من القضايا وجدت فيه حوارًا من عمل وكيل النيابة ؛ يسمى فى لغة القضاء محضر تحقيق ، قد لا يقل أحيانًا فى الروعة عن الحوار الموجود فى ملف رواية مسرحية .. كل ما هنالك من فرق هو أننا فى الجلسة نعرض رواياتنا فى النهار ، وبدون ماكياج .. ويدخل الممثلون إلى القاعة من الحياة مباشرة .. فى حين أن رواية المسرح تحتاج إلى وسطاء من الفنانين ينوبون عن الأشخاص الحقيقيين .. ومع ذلك فلدينا المحامى الذى ينوب أحيانًا عن الشخص الحقيقى ؛ فيتصرف بفنه البارع فى إظهار الحقائق الدفينة تصرف الممثل القدير فى إبراز خفى المشاعر .. كل شىء إذن فى قاعة المحكمة قريب الشبه إلى كل شىء فى قاعة التمثيل .. فى القاعتين الحياة تجرى مجردة أو مزوقة أمام جمهور من النظارة ..

* * *

حان وقت افتراقنا .. فذهب هو إلى فندقه الذى ينزله مع أفراد فرقته .. وعدت أنا إلى منزلى .. وقد اتفقنا على اللقاء فى مساء اليوم التالى .. دخلت بيتى فوجدت كل شىء هادئًا .. فقلت هو الهدوء الذى يسبق العاصفة .. ولكننى لم أفكر فى غير حاضرى ، وكان التعب قد نال منى ، فنمت نومًا عميقًا حتى طلع الصباح ، فنهضت وذهبت إلى مكتبى فى نيابة البندر ، وأخذت أصرف شئون عملى المعتاد كأن لم يحدث شىء .. ولكن الصمت المضروب حولى بدأ يثير قلقى .. ما بالى لا أسمع عن رئيس النيابة خبرًا .. إنه لا يتركنى هكذا حتى الساعة إلا وهو ينوى أن يفاجئنى بمكروه.. وكدنا نقترب من الظهر ، وتصدع رأسى من كثرة تحقيق قضايا التلبس العاجلة التى قذفتها علينا حوادث المولد .. فتوقفت قليلا عن مواصلة العمل .. وطلبت فنجانًا من القهوة ، وأخذت أتصفح جرائد اليوم .. كان فى الصحف أخبار التعديل الوزارى ، وطالعت اسم الوزير الذى يعنينا .. وهو وزير الحقانية : أى « العدل ».. فلم أعرف عنه شيئًا .. هو اسم جديد لعضو فى أحد الأحزاب .. تدخل الوزارة لأول مرة .. فقلت فى نفسى : لعل رئيس النيابة قد شغل عنى اليوم بأخبار الوزارة ..

وتركت الصحف وتأهبت لاستئناف عملى .. وإذا الساعى يدخل معلنًا زيارة صديقى عمر أفندى .. فأذنت له فى الحال .. فدخل مترددًا معتذرًا .. وأخرج من جيبه ورقتين كبيرتين .. حفظهما فى يده لحظة وهو يقول :

— عند سعادتك حق .. بين التمثيل والقضاء شيء من القرابة ..

وجلس حيث دعوته إلى الجلوس .. وجعل يوضح لى سبب زيارته التى على غير موعد ولا انتظار .. ممهدًا لذلك بموقف مماثل حدث له فى الصعيد فيما مضى من سالف الزمن ، يوم كان فى جوقة المرحوم محمود حبيب .. قال : إنه كان يومئذ جالسًا على باب المسرح نهارًا قبل التمثيل .. وإذا برجلين من الفلاحين يقبلان وفى يد أحدهما « عريضة » يريدان أن يقدماها إلى الملك هرون الرشيد أو إلى الملك النعمان .. فقد سمعا من الناس فى الأسواق وممن يقرأ لهم الإعلانات ، أن الملوك تحضر فى ذلك المكان .. وهما يتوسلان أن ترفع العريضة إلى أحد هؤلاء الملوك ليرفع عنها الظلم ..

وقدم إلىّ عمر أفندى الورقتين وهو يقول :

ـــ نفس الموضوع حصل الصبح ..

واستطرد يقول : إن الزمن قد تغير بعض التغيير .. فالشكوى اليوم ليست مقدمة كما قدمت فى الماضى إلى هرون الرشيد أو الوزير جعفر مباشرة .. فالعقلية قد تنورت قليلا .. بل هى مقدمة إلى الحكومة .. فقد ذكر القرويون فيما ذكروه عند ما حضروا فى الصباح إلى المسرح بالعريضتين ، أنهم حضروا التمثيل البارحة ولا حظوا وجود الحكومة كلها ، من مدير وحكمدار وعسكر وخفراء ، فأدركوا أن التمثيل شىء مهم عند ذوى الشأن .. وأن لأفراد الفرقة من الممثلين خاطرًا واعتبارًا عند المدير والحكمدار ؛ فجاءوا يطلبون الوساطة لدى الحكام ..

ونشرت العريضتين فى يدى .. فوجدتهما مملوءتين بالشكاوى ضد العمدة والصراف لظلمهما الأهالى .. فتناولت قلمى وأشرت عليهما بالتحويل إلى جهة الاختصاص لإجراء التحقيق اللازم ، ثم التفت إلى صديقى الممثل باسمًا :

ـــ النيابة نفذت طلبات الوزير جعفر !..

فرفع عمر أفندى يديه إلى رأسه بالشكر على الطريقة التى تتبع فى قصور الملوك فى روايات التمثيل .. وكنت قد طلبت له قهوة ..

فحضرت ، وأخذ يرشف فى الفنجان على مهل .. وإذا باب الحجرة المغلق يفتح فجأة مسبوقًا بضجة وصوت صدمة كأنما قدمًا قد ركلته .. وإذا رئيس النيابة يدخل الحجرة هاجمًا كأنه قذيفة مدفع .. فما إن أبصرت أوداجه المنتفخة وعينيه المتطاير منهما الشر ، وطريقته العنيفة فى الدخول ، وسحنته المخيفة المنذرة بالويل والثبور ، حتى أيقنت بحلول الطامة الكبرى .. وأسعفتنى حلاوة الروح ، فضبطت أعصابى ، وأسرعت أحول مجرى الموقف كمن يحول أنظار ثور هائج إلى هدف آخر ، فأقبلت على الرئيس مشيرًا إلى عمر أفندى وقلت :

— اسمح لى أقدم لسعادتك الوزير ..

وهممت أن أضيف كلمة « جعفر ».. ولكن رئيس النيابة لم يتركنى أتم الكلام .. فقد كان أسرع من لمح البصر فى الانحناء ومد اليد باحترام إلى صديقى الممثل القديم ، قائلا :

— نهنى وزارة الحقانية بإسنادها إليك يا معالى الوزير ..

فعقدت الدهشة لسانى لحظة .. ولكن سرعان ما انكشفت لى حقيقة الموقف .. فتجلدت .. واكتفيت بمراقبة ما يجرى ، وما سيجرى .. فرأيت عمر أفندى قد انحنى هو الآخر مسلمًا وهو لم

يدرك قطعًا من الأمر شيئًا .. وظن المقصود من « معالى الوزير » أنه الوزير جعفر فى رواية هرون الرشيد .. فكانت انحناءته طويلة مسرحية ، لا يمكن أن تصدر عن وزير « الحقانية » .. ولو كان رئيس النيابة حاضر الذهن وقتئذ ، ولم يكن غارقًا فى جو التعديل الوزارى الذى يملأ البلد والصحف فى تلك الأيام ، لفطن للأمر .. ولكنه أخذ ولا شك طريقة الانحناء المغرقة الغريبة .. على أنها مغالاة فى التواضع .. وخطر لى عندئذ أن أستغل الموقف للخروج من ورطتى .. فقلت مباهيًا :

ــ الوزير صديق قديم ..

فنظر إلىّ رئيس النيابة القاسى كالحجر نظرة تودد واستعطاف .. فتشجعت وقلت له :

ــ أرجوك يا سعادة الرئيس تقول لصديقى الوزير : انت راضى عنى والا لأ ؟..

فالتفت إلى « عمر أفندى » وقال بلهجة التحمس ، وهو يشير إلى بيده المرتجفة من التأثر :

ــ أؤكد لمعالى الوزير أنه أحسن وكيل نيابة فى المديرية ، فى الكفاءة والنشاط والآداب والطاعة والأخلاق والذكاء .. وكيل

نيابة مثالى .. نموذجى يا معالى الوزير ..

واسترحت لهذا الاعتراف الذى انتزعته من فم رئيس النيابة انتزاعا .. ولكن الشك أخذ يخالجنى فى قيمته .. وبدأت أتصور ما سيحدث عندما تنكشف حقيقة التزوير .. فوجدت السلامة فى الهرب قبل فوات الأوان .. فأسرعت أقول لرئيس النيابة :

ـــ سعادتك ملاحظ أنى مرهق فى العمل ومحتاج لراحة .. فيه مانع تسمح بإجازة أسبوعين ابتداء من اليوم ..

فأجاب فى الحال :

ـــ ما فيش مانع أبدًا.. تقدر تقوم بالإجازة من دلوقت.. وأنا أنتدب وكيل نيابة المركز يحل محلك ..

ـــ متشكر .. أنا مسافر بعد ساعة ..

فوافق رئيس النيابة بعلامة مؤدبة من رأسه .. واتجه إلى عمر أفندى قائلا :

ـــ ومعالى الوزير شرف البلد إمتى ؟..

فأجاب الممثل من فوره :

ـــ اشتغلنا من ليلة امبارح ..

ورأيت كأن رئيس النيابة يريد أن يستوضح .. فأسرعت

أقول مفسرًا دون توضيح يكشف المستور :

ــ كان وزير ليلة امبارح ..

وفهم رئيس النيابة من ذلك أن المراسيم وقعت البارحة .. وفهم عمر أفندى أنه كان حقًا وزيرًا فى رواية البارحة .. وظل الأمر بذلك مستورًا .. إلى أن قال عمر أفندى بسذاجة :

ــ طبعًا سعادتك شرفت ليلة امبارح مع سعادة المدير ..

فلم يفهم رئيس النيابة شيئًا من المقصود .. وخشيت أنا أن تسفر الاستيضاحات من الجانبين عن كشف الموقف .. فدنوت من رئيس النيابة وهمست فى أذنه بأن الوزير مدعو إلى الغداء عندى دعوة خاصة مقصورة عليه بناء على طلبه ، وأن اللياقة أن يأذن لنا الآن بالانصراف .. فقال فى الحال :

ــ تفضلوا .. تفضلوا .. أنا تحت أمركم ..

* * *

وهكذا خرجنا من المأزق .. و لم أكد أغادر دار النيابة مع عمر أفندى حتى تركته وذهبت إلى منزلى توًا ، فأعددت حقائبى وسافرت إلى الإسكندرية فى إجازة أسبوعين .. وأنا أتوقع فى كل لحظة ظهور الحقيقة .. فلا بد أن يعرف رئيس النيابة من الصحف أن وزير الحقانية لم يذهب إلى ذلك البندر من الأقاليم ؛ بل لا بد له

أن يرى صورة للوزير الحقيقى تنشر فى إحدى الجرائد ، يدرك منها مدى المهزلة .. ولكن القدر شاء أن يجنبنى المصيبة فى حينها ، وأن ينقذنى هذه المرة أيضًا من رئيس النيابة كما سبق أن أنقذنى .. فإذا بالصحف تنشر فى اليوم التالى لسفرى حركة تنقلات بين رؤساء النيابات ، وجدتها تشمل رئيس نيابتى بالنقل إلى مديرية أخرى بعيدة .. فتنفست الصعداء ، وأيقنت أنى نجوت ..

ومرت بعد ذلك الأعوام الطويلة وفرقت الأيام بينى وبين رجال القضاء ، بتركى هذا السلك إلى أعمال أخرى .. فلم أقابل رئيس النيابة القديم إلا بعد أن أحيل إلى المعاش ، وقد وصل إلى آخر مراحل القضاء فى محكمة النقض .. قابلته فى مقهى بالقاهرة وهو شيخ متهدم ، ففرح بلقائى أيما فرح ، وقال وهو يستعيد ذكرى الماضى ويتنهد :

— فاكر معالى الوزير إياه ؟!..

فقلت له باسما وأنا أغمز بعينى :

— الوزير جعفر ؟!..

فقال ضاحكا عن طقم أسنانه الصناعية :

— أيوه يا سيدى .. وزير هرون الرشيد .. ما عرفتش أنا شخصيته وفهمت اللعبة إلا بعد انت ما زُغت !..

٥

سقطوا فى الإخراج

عندما انتدبت للقيام بأعمال النيابة العمومية فى مركز « .. » من الأقاليم .. قالوا لى :

ـــ حذار من مأمور هذا المركز .. إذا سلم عليك فبادر إلى عد أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد اختلس منها أصبعًا ، فى غفلة منك !..

فقلت بنبرة الواثق :

ـــ اطمئنوا !..

وركبت القطار إلى مقر وظيفتى .. وإذا المأمور ينتظرنى على المحطة مع جميع موظفى المركز ووجهائه وأعيانه .. ويستقبلنى استقبال الحكام أصحاب الأبهة والمقام ..

ومنذ تلك اللحظة والمأمور يحيطنى بكل عناية وإكرام .. فما

من يوم يمضى ، حتى يقيم لى مأدبة يحشد لى فيها الأعيان والعمد ، ويذبح لى فيها الديوك ، ويسميها حفلة تعارف ، واجتماعًا مصلحيًا ، للتوفيق بين الأسر المتنافرة ، والنصح بمراعاة الهدوء التام ، والمحافظة على الأمن العام !..

وأخيرًا انفردت بالمأمور ، وهمست فى أذنه :

— قل لى يا حضرة المأمور !.. ما هى الحكاية بالضبط ؟..

— أى حكاية ؟..

— حكاية الولائم هذه .. والديوك ..

— هذا أقل ما يجب علينا .. ابتهاجًا بقدوم سعادتك !..

— مفهوم !.. ولكن المسألة طالت و .. زادت !..

— أبدًا .. أنت كذلك خير وبركة .. ولا تحلو لنا لقمة من غير وجودك !..

— هذه اللقمة ديك رومى .. هل مرتبك أو مرتبى يسمحان لنا بهذا الترف ؟..

— نحن فى الأرياف يا بيك .. الخير هنا كثير .. الخير كثير !..

— مفهوم .. مفهوم .. هذه الديوك تشترى أو .. تهدى إليك ؟..

ولمح حضرة المأمور فى كلامى ما يشبه الاستجواب .. وأحس بغريزته أو لباقته أو مرانه وخبرته : إنى لست الرجل الذى فهم وسكت واستمرأ .. فبادرنى قائلا :

ـــ سمعت عنى شيئًا ؟..

ـــ لم أسمع غير الثناء العاطر !..

قلتها بكل رباطة جأش .. فتنفس المأمور الصعداء .. وقال :

ـــ عيبى أنى رجل « بحبوح » !.. ما فى يدى لغيرى !..

فقلت له باسمًا بلهجة ذات مغزى :

ـــ وما فى يد غيرك ؟..

فرفع كفه بحركة تمثيلية وصاح :

ـــ حاشا لله ..

فقلت له :

ـــ ولكن مسألة الديوك ..

فاقترب منى بكرسيه ، وقال فى أذنى :

ـــ ماذا سمعت عنها ؟.. بالله قل لى .. من الذى أخبرك ؟.. الولد سعداوى الخفير ؟..

ـــ لا أعرف سعداوى ، و لم أسمع من خفير .. ولكنى شممت

بأنفى لها رائحة !..

فنهض المأمور صائحًا :

— شممت لها رائحة ؟!.. مؤكد هو الكلب سعداوى الذى أخبرك ولا أحد غيره !.. ولكن ما ذنبى .. إذا كان فى كل يوم يموت ديك رومى !..

ولم أفهم مراده ، وحملقت فيه بعينى :

— ماذا تقول ؟..

ولم أكد أتم كلمتى حتى ظهر الخفير ، وضرب الأرض بحذائه الضخم ورفع يمناه إلى لبدته الطويلة ذات الرقم النحاسى وحيا حضرة المأمور .. ومد يسراه ، فإذا بها ديك رومى نافق بالموت ، ورائحته نتنة تؤذى الأنوف .. وأسرع الخفير يقول بلهجة مسرحية كأنها ملقنة محفوظة ..

— وجدناه « فطسان » بين الديوك يا افندم !.. والبلوك أمين عمل المحضر اللازم .. ولم ينتظر الخفير من المأمور كلامًا .. وضرب الأرض بحذائه وانصرف بالديك الميت المنتن على عجل .. ولكن المأمور نهض وعاجله بصفعة على قفاه قائلا له بصوت خافت :

ـــ مظاهرة !.. روح واخفيه فى مخزن التبن يالوح !..

وعاد المأمور .. فوجدنى أضع يدى على بطنى ، كمن يحس القئ .. وأقول له :

ـــ كنت تطعمنا من هذا ..

فقال بصوت صادق هذه المرة :

ـــ حاشا لله !..

ثم أقبل علىّ يقول كمن يفضى باعتراف ، قضت ضرورة الموقف أن يكشف عنه ، حتى لا يقع فى وهمى ما هو شر من الحقيقة كما قال !.. حقيقة الأمر أنه كلف رسميًا بجمع الديوك الرومية لحساب جيش الاحتلال البريطانى ، لمناسبة عيد الكريسماس .. فجمع بنشاطه وهمته من القرى التابعة له مئات من هذه الديوك .. مات منها هذا الديك المنتن منذ أيام عديدة .. وعمل له المحضر اللازم .. ولكنه لم يلق و لم يدفن .. بل احتفظ به فى المخزن .. يخرجه الخفير سعداوى كل صباح ، ليعمل له محضر إثبات « وفاة » على اعتبار أنه ديك جديد قد مات .. بينما الديك الجديد حى يرزق ويذبح فى منزل حضرة المأمور !..

سمعت ذلك .. فقلت :

ــ إذن هذا الديك المنتن .. فقاطعنى المأمور قائلا بابتسام :

ــ ممثل ليس إلا .. كل وظيفته الآن أن يقوم بتمثيل دور الميت فى كل صباح ..

فقلت فى شيء من الجد :

ــ وهل هذا يجوز ؟.. إنه ينتحل شخصية ديك حى !..

فقال المأمور :

ــ وهل من الجائز أن جمعًا من الديوك يعد بالمئات لا « يفطس » منه ديك واحد على الأقل كل يوم !.. هل الديوك خير من الآدميين ؟.. فلنراجع نسبة الوفيات إلى تعداد القطر المصرى .. إنى راض بالإحصاءات الرسمية !..

فقلت له :

ــ ولكن الواقع أنه لم يمت عندك فى كل يوم ديك .. أليس هذا هو الواقع ؟..

فقال :

ــ ولكن المعقول أنه يجب أن يموت من هذا العدد فى كل يوم ديك .. أليس هذا هو المعقول ؟!..

فقلت :

ـــ لا يهم الآن المعقول ، ولكن ..

فقال صائحًا :

ـــ سبحان الله !..عندما تتصرف جهة الإدارة مرة واحدة فى حياتها طبقًا للمعقول .. يصبح المعقول لا يهم !..

فضحكت .. وقلت له :

ـــ هذه على كل حال مسألة لا تدخل حتى الآن فى اختصاص عملى القضائى .. كل ما يجب أن أعمل هو أن أعفى نفسى من حضور هذه الولائم ..

وانقطعت منذ تلك اللحظة عن رؤية المأمور .. إلا لأمور تتعلق بالعمل .. وحاول هو أن يقنعنى بأنه ، فيما عدا مسألة الديوك المنطقية فى نظره ، رجل سليم الطوية طاهر الذمة ، مستقيم السلوك .. ولم أجد حتى ذلك الوقت ما يلقى على تصرفاته غبارًا .. فقد كان مثال النشاط والهمة والذكاء ..

* * *

وكاد يكتسب كل ثقتى .. إلى أن وقعت حادثة فى ليلة من الليالى .. فقد جاءتنى إشارة تليفونية بأن ابن أحد الأعيان قتل

بعيار نارى .. والقاتل مجهول .. فسألت عن المأمور .. فقيل لى إنه خف إلى مكان الحادثة .. فقلت فى نفسى : « مأمور نشيط » .. وقمت فى أثره إلى مكان الواقعة .. فوجدته قد قام بالواجب .. وأكثر من الواجب .. فقد قبض على القاتل .. وضبط البندقية المستعملة فى الجريمة .. وأحضر شهود الإثبات .. و لم يبق أمامى إلا أن أسجل فى محضرى قضية ناجحة ، لا شبهة فيها ولا شك .. هذا الفتى القتيل ابن العين الثرى ، كان فى « الجرن » مع شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل تليفون العمدة ، وهم شهود الإثبات ، يتدفئون حول « ركية نار » وإذا المتهم يطلق العيار على المجنى عليه ، ويرديه قتيلا .. وقد رأى الشهود القاتل رؤية العين .. وهم شهود رسميون لا خلاف فى أقوالهم ولا تناقض ، كان كل منهم يدلى بشهادته أمامى بكل فصاحة وطلاقة .. لا تلعثم ولا تردد .. فلما سألتهم :

— وكيف أبصرتم القاتل والليلة مظلمة فى هذا الوقت من آخر الشهر العربى ؟..

أجابوا كلهم .. لم يشذ منهم واحد !:

— أبصرناه على « ركية » النار !.. قلت فى نفسى : غدًا فى

مثل وقت الحادثة من الليل أجرى عمل تجربة .. ولكن ما من شيء يدعونى إلى تكذيب شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل التليفون .. قضية ناجحة .. فيها شهود رؤية .. وأقوال مقبولة معقولة .. وأمرت بحبس المتهم .. وعدت إلى دارى ، وأنا أثنى على همة المأمور ..

وفى اليوم التالى جاء محام معروف « أصبح فيما بعد وزيرًا خطيرًا » وأخبرنى أنه حاضر عن المتهم .. وأنه يشك فى تصرفات المأمور .. فإن الصلة بينه وبين العين الثرى والد القتيل ، معروفة عند العالمين ببواطن الأمور ، إنها قائمة على المنفعة ، وأن هذا العين أراد اتهام غريم له .. كان يريد من قبل الإيقاع به .. هو هذا المتهم .. وأن شهود الإثبات لم يبصروا شيئًا و لم يروا أحدًا ، وأن الإشارة التليفونية الأولى قيل فيها إن « القاتل مجهول ».. شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل التليفون ليسوا سوى شهود مصطنعين يمثلون دورًا أعدَّ لهم إعدادًا ..

فقلت للمحامى :

ـــ اطمئن .. سأقوم الليلة بعمل تجربة .. سأضع الشهود حول «ركية النار» .. ونأتى بأنفار مختلفين على أبعاد مختلفة

لنحكم هل يبصرونهم ويعرفون صفاتهم !..

فانصرف المحامى منتظرًا النتيجة .. وجاء الليل .. فسألت عن المأمور ، فقالوا لى إنه سبقنى « بالبوكسفورد » إلى مكان الحادث .. ليعدّ اللازم للتجربة .. فقمت أنا وكاتب التحقيق فى سيارة النيابة .. ولم نكد نقترب من القرية التى وقع الحادث فى زمامها ، حتى شاهدنا ألسنة اللهب وسحب الدخان تتصاعد منها إلى عنان السماء !.. فقلت مرتاعًا :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. لقد شب حريق فى القرية !.

وأمرنا السائق أن يسرع بنا إليها لنعرف الخبر ... فانطلق بنا إلى أن وصلنا إلى الجرن .. وهناك رأينا العجب .. أحطاب مكدسة بعضها فوق بعض .. طولها وارتفاعها مما يقاس بالمتر .. قد أشعلت فيها النيران .. والشهود من حولها يمدون أيديهم نحوها كأنهم يتدفئون .. وشواظ اللهب قد أسال العرق من جباههم ، ودخان الحطب قد سود وجوههم .. ووهج الضوء يكشف الجرن فى ظلام الليل على نحو يحسده عليه ميدان الأوبرا فى القاهرة !..

قلت للمأمور الواقف بين شهوده يمسح عرقه بمنديله :

ــ ما هذا ؟..

فقال وهو يسعل من الدخان سعالا شديدًا ..

ــ ركية النار !..

فصحت :

ــ أتسمى كل هذا « ركية نار للتدفئة ؟.. أهذا معقول يا حضرة المأمور ؟.. أنت صاحب التصرفات المعقولة .. هل يرضيك أن تسمى هذا الحريق « ركية » ؟!..

ونحيته فى الحال جانبًا .. وأمرتهم بإطفاء هذه النيران .. وجئت بفلاح آنست فيه البراءة وتوسمت فيه الذمة .. فطلبت إليه أن يقيم « ركية » نار للتدفئة كما يفعلون عادة فى هذه الناحية .. فأقامها بالحجم المعقول .. فعارض الشهود .. فزدت فى حجمها قليلا .. فعارضوا أيضًا .. فزدت .. حتى جعلتها أضخم مما ينبغى قليلا.. واستحضرت أنفارًا من أهل القرية على مسافات مختلفة.. فما استطاع شاهد واحد أن يميز شخصًا منهم ، أو يتبين صفة من صفاته الظاهرة .. فهم فى ضوء الركيه لا يمكن أن يبصروا من فى الظلام .. بل هو الذى يستطيع أن يراهم ولا يرونه ..ذلك هو الوضع الطبيعى كما اتضح لنا ، ما دام الجرن لم يسطع

بضوء الحريق الذى أرادوا أن يشعلوه ..

عند ذاك أيقنت أن شهود الإثبات لم يروا شيئًا حقًا و لم يبصروا أحدًا .. وأنهم ليسوا أكثر من ممثلين يؤدون أدوارًا .. فعدت إلى مقر عملى وأطلقت سراح المتهم .. وقلت للمأمور هامسًا :

ـــ جعلت من الديك الرومى ممثلا .. قلنا معقول !.. ولكن ألا تعترف أن تمثيل شيخ البلد وأعوانه لم يكن بالمعقول !..

فأبدى التنصل .. وأظهر البراءة .. وألقى عليهم التبعة ، ونفى عن نفسه التدخل .. وقال ضاحكًا :

ـــ مسألة « الركية » فضحتهم !.. نجحوا فى التمثيل ، وسقطوا فى الإخراج !..

كان الأجدر به أن يقول « سقطنا » ... ولكنه أراد أن يخرج من كل هذا كما تخرج الشعرة من العجين .. و لم أرَ فائدة من إحراجه ، فتظاهرت بتصديقه .. غير أنى أصبحت شديد الارتياب فى كل تصرفاته .. إلى أن انتهت مدة انتدابى فى مركزه .. وركبت قطار العودة .. فإذا به يودعنى كما استقبلنى .. بحشد الأعيان والموظفين على المحطة .. وسلم علىَّ سلامًا حارًا .. و لم يترك يدى حتى تحرك القطار .. فما كدت

أخلو إلى نفسى فى عربة القطار ، حتى تذكرت قول من حذرنى منه قبل أن أراه ..

— إذا سلم عليك فبادر وتمم على أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد خطف منها إصبعًا دون أن تدرى !..

ففتحت كفى فى الحال .. لأرى هل أنا عائد من هذا المركز بأصابعى العشر ؟!...

٦

شاعرة الهجاء

كنت فى كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشحًا بوسامى الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ذلك الدفتر الطويل الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين والشهود ، وملخص وصف التهمة ومواد القانون إلخ .. وبين أصابعى ذلك القلم الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل قضية .. ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة فى ذلك « الرول » فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره » هو الذى يسد هذه الخانة بقلمه تلطفًا منه وكرمًا لثقته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وانتباه .. على أن من المبالغة أن أزعم أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى حولى طوال الوقت .. هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه إليها كل التفانى .. لعلى

كنت أعرف بالغريزة ما ينفعني كروائى مما لا نفع لى فيه .. إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين .. فالقضية التى فيها مرافعة طويلة معناها عندى « غياب ذهن » طويل .. وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين فى نظر المحكمة يثير فى نفسى كل تأمل وتفكير .. ولقد سمعت فى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بألفاظ جارحة :

القاضى : ماذا حصل يا خفير ؟..

الخفير : أنا واقف فى دركى جهة نقطة الملموسات « يقصد المومسات » ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمة خارجة من بيتها حاطه ..

القاضى : حاطه إيه ؟..

الخفير : حاطه من غير مؤاخذة أحمر وابيض ، ومتخططة وفى رجليها الخلاخيل ، ولابسة شبشب زحافى .. ووقفة بين الجدعان فى وسط الشارع فى حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال ..

القاضى : وكيف تعدت عليك المتهمة أثناء تأدية وظيفتك ؟..

الخفير : قلت لها عيب يا ملموسة .. ادخلى بيتك .. فما كان
منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت وتـقصعت
وقالت :

ـــ « اخرس يا غفير يا مصدى قطع لسانك .. دا انا لما انفض شبشبى الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك » !..

فظهر الاستنكار على وجه القاضى ، وظهر الإعجاب على وجهى .. إن هذه المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدى وهى فى نظرى قد جاءت بأخصب صور الخيال الفنى .. فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة فى تحقير خفير .. لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صورًا أخرى فى التجميل والثناء كما فعلت فى التقبيح والهجاء ؛ لكانت شاعرة ، ونظرت إليها وهى فى قفص الاتهام فإذا هى هادئة ساكنة ويدها على خدها ، ترمقنا بنظرات فاترة .. وعلى شفتيها ابتسامة لعلها ساخرة .. إنها معترفة .. ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟.. لقد روحت عن نفسها بما قالت وكفى .. ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟..

ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟.. لا أقصد حياتها الظاهرة التى يعرفها الخفير ورجال الضبط وزوارها وزبائنها ، إنما أقصد

تلك الحياة الخفية فى قرارة نفسها ، هنالك ولا شك أشياء كثيرة رأتها وأحستها ولا تكلف نفسها التعبير عنها ، ولو أنها أرادت أو استطاعت لجاءت بأعاجيب ، ذلك أنها ستصف الأشياء بطريقتها هى ولغتها هى .. ويالها من طريقة ولغة !.. خيل إلىّ عند ذاك أن الشعر فى جوهره ليس مجرد ترتيل جميل للغة وصور نعرفها من قبل .. إنه عملية اكتشافنا لعالم له لغته وصوره ونبرته التى تبهرنا لأننا نحس معها كأننا نسمعها لأول مرة .. لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟.. ليس أكذب من الروائى الذى يفكر لأشخاصه بعقله هو ويتكلم عنهم بلغته هو ، هذه المرأة مادة قيمة ، ولكن .. أنسيت أنى أمثل الاتهام ؟.. نحن فى الحياة قطبان لا يلتقيان .. وإن التقينا فَحَوْلَ القفص .. لأنى أنا العقاب وهى الجريمة ، أنا السيف وهى الذبيحة .. لا يمكن أن نلتقى للتفاهم أبدًا .. لا تفاهم إلا إذا طرحت عنى وسامى الذى يكبلنى وانطلقت حرًا أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف المثال من الطين الذى يصنع به فنًا ..

ومضت بى الخواطر فى هذا السبيل .. وغمرتنى فلم أدر حتى بالزمن الذى مرّ بى .. ولم أفطن إلى ما جرى حولى ولا إلى

ما نظرت المحكمة من قضايا .. و لم أنتبه إلا على صوت باب حجرة المداولة يفتح فجأة وقد ظهر الحاجب فى حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسيًا وضعه إلى جوارى وهمس فى أذنى بقوة :

ـــ سعادة البيك مفتش عموم النيابات !..

وقبل أن أفيق إلى نفسى دخل المفتش بسرعة وجلس إلى جوارى وحيانى بصوت خافت ثم أراد أن يعرف رأيى فى القضية المعروضة ، فاصفر وجهى .. أى قضية ؟.. والتفت أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة بعيون زائغة شاردة ، فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغى ويزيد ويضرب بقبضته فى الهواء ويصيح :

ـــ هذا كلام فارغ .. النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة . لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضى هذا المتهم مكبلا بكل هذه النصوص ..

فمال مفتش النيابات يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم ، فلم أدر ماذا أقول ولا ماذا أصنع .. وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة ويتناقشون .. وشاء حظى أن يكون هذا المحامى سفيه اللسان فأمعن فى الصياح قائلا :

ـــ هل هذه نصوص تطبق فى حالة موكلى ؟.. هذا تخبط من النيابة .. هذه فوضى .. هذا سمك لبن تمر هندى ..

فاهتز مفتش النيابات فى كرسيه وانتفخت أوداجه .. وهمس فى أذنى بشدة ..

ـــ النيابة أهينت .. قم دافع عن كرامة النيابة !..

فقلت مداراة للمسألة :

ـــ كرامة النيابة فى الحفظ والصون ..

ـــ كيف ذلك ؟.. ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى ؟.. المحامى يقول النيابة سمك لبن تمر هندى ..

فقلت له :

ـــ أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندى فقط ..

فصاح صيحة كاد يسمعها القاضى والحضور :

ـــ لا .. لا .. لا .. هذه إهانة موجهة إلى النيابة .. يجب على الجالس فى كرسيها أن ينهض لدفعها .. قم .. قم .. وسجل احتجاجك .. وابسط وجهة نظرك فى تطبيق نصوص القانون ..

فقلت فى نفسى :

ـــ لو أنى كنت أعرف فقط نوع القضية ؟.. ولكن الموقف

ساء من كل ناحية .. فكان الدفاع بعيدًا كل البعد عن ذكر ما يشم منه رائحة التهمة ، مكتفيًا بالتهويش والتهويل والطعن فى تصرفات النيابة والبوليس ، وكلما أمعن فى ذلك هاج مفتش النيابات وماج وانهال على كمى يكاد يمزقه ، ويطلب منى القيام والكلام .. وأنا متشبث بمقعدى مصمم على القعود والسكوت .. وأصبح منظرنا لمن يفهم موقفنا يبكى ويضحك ، وقد فطن القاضى إلى الأمر كله ، وأدرك الورطة التى أنا فيها ، وهو يعرف عاداتى جيدًا ويحترم شرود ذهنى دائمًا .. فابتسم ابتسامة فهمتها .. فتشجعت وقمت أقول بقوة وحماسة :

ـــ النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى ..

فقال القاضى :

ـــ المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته .. وهو لم يقصد قط فى أى لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد ..

وصادق المحامى على قول المحكمة بعبارة مجاملة .. وجلست فى مقعدى أتنفس الصعداء وأقول لمفتش النيابات :

ـــ هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة !..

ومرت الأيام وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية فى البلاد ، فكنا كلما تقابلنا وتذكرنا الماضى ضحك لموقفى ذاك طويلا .. ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنى كنت — مع كل عيوبى — من خيرة رجال النيابة .. عافاه الله !..

٧

مصيفون فى السلاسل

لقد قلتها يومًا : ما من عمل فى العالم كله أشق من عمل نائب فى الأرياف فى فصل الصيف ، فالجرائم تزداد فى الصيف ، لأن الغرائز تتيقظ بكل حرارتها فى الصيف .. والناموس والهاموش والبق والذباب والقمل والبراغيث ، كلها تكثر فى الصيف ، وتزحف على حيطان النيابة العمومية .. فإذا ذكرت كلمة البحر لمنكود مثلى يعمل فى أقاصى الريف فى هذه الظروف ، فكأنك قد ذكرت النسيم لمذنب يتلظى فى أعماق الجحيم !.. وكنا ننتظر الانتدابات الصيفية كما ينتظر البشر مفاجآت القدر .. فإذا جاء انتدابنا فى مدينة أو بلدة على بعد ساعتين من بحر أو نهر سجدنا لله بالشكر ..

لن أنسى فرحتى يوم فتحت المظروف الأصفر الرسمى ،

فوجدت أنى قد انتدبت طول شهر يوليو فى « فارسكور ». لم أتمالك أن صحت : « لقد صيفت !.. »

ولبثت أعمل فى هذا الريف ليل نهار ، أنجز المتراكم من القضايا ، وأقوم بعمل اثنين لأن الوكيل المساعد قام بالإجازة .. ونفسى لا تتسع للفرح الذى يملؤها ويفيض من جوانبها .. حتى جاء شهر يوليو ، وأذنت ساعة السفر إلى فارسكور .. فحملت حقيبتى وركبت القطار إليها منشرح الصدر شامخ الأنف ، كأنى سائح ذاهب إلى ربوع سويسرا ..

كل ذلك لأن فارسكور قرب دمياط... ودمياط قرب رأس البر !.. ووقف القطار بعد سفر طويل كاد ينفد معه صبرى فى وسط الخلاء ، وصاح عامل القطار ينبهنى : فارسكور !..

فنظرت من النافذة فلم أجد مدينة .. ولكنى وجدت « كشك » من الخشب يسمى « محطة » ومن حوله فضاء وبرارى .. ولا شىء غير ذلك ..

— متأكد أن دى فارسكور !..

— طبعًا .. وما مصلحتى أنى أغش حضرتك ؟!..

قالها « الكمسارى » .. فنزلت بحقيبتى ، وأنا لا أدرى ماذا أنا

صانع فى هذه البقاع .. لا بيت ولا فندق ولا حتى بلدة .. ولم أفكر طويلا فقد أنقذنى صوت خلفى يصيح :

— تفضل يا سعادة النائب !..

فالتفت ، وإذا هو حاجب النيابة فى انتظارى ، أقبل نحوى وتناول من يدى الحقيبة .. فابتدرته قائلا :

— الحقنى !.. أنا فين ؟.. احنا فين ؟...

— فى فارسكور يا بيه ..

— فين هى فارسكور ؟.. الكشك ده !..

— لا مؤاخذة يا بيه ؟.. هنا المحطة .. لكن البلد هناك على مدى الشوف ، فى البر الثانى .. لازم نمشى أو نركب ركوبة .. وبعد كده نعبر النيل فى قارب .. وبعدين نمشى مسافة ..

— وليه كده المحطة مخاصمة البلد ؟..

— مصلحة السكة الحديد ..

— ما علينا .. وصلنى بأى طريقة ..

ووصلنا إلى استراحة النيابة فى بلدة فارسكور .. ونظرت إلى الحجرة التى سأقيم فيها ، وإلى الفراش الذى سأنام عليه .. وصحت .. مستحيل !..

وخاطبت وأنا فى ثورة من الغضب النائب العام بالتليفون ، قلت له :

— إنى أراهن على أن المكان المخصص لمبيتى الذى يسمونه « استراحة » ، للتعمية أو للسخرية ، لو أنه عرض على كلب ضال فى حارات فارسكور لعافه وفضل الهواء الطلق !.. فهل يحرم على مثلى حتى الهرب إلى الهواء الطلق !..

فقال النائب العام فى نبرة ضاحكة :

— وكيل نيابة البلد ينام فى الهواء الطلق كالمتشردين !..

— وما العمل ؟..

— تصرف على مسئوليتك الخاصة .. لك أن تبيت فى دمياط أو رأس البر .. أنت حر .. على شرط أن تقوم بواجبات أعمالك بكل دقة .. وعلى مسئوليتك أنت وحدك !..

— متشكر يا باشا !..

قلتها فرحًا .. فهذا تصريح مستتر بأن أقيم فى المكان المريح .. إذن لماذا لا أذهب فورًا إلى رأس البر .. وأحضر إلى فارسكور كل صباح .. ولنقل كل يومين مرة .. حسب العمل .. ونظام الجلسة ..

وقمت فى الحال بحقيبتى إلى فندق « كورتيل » برأس البر ، وحجزت حجرة .. وبلغت المركز والنيابة وكل جهات الإدارة فى المصيف بمكانى ورقم حجرتى للاتصال بى عند اللزوم .. وفتحت رئتى لهواء البحر .. واضطجعت قليلا وإذا تعب الشهور والأعوام يتجمع فى لحظة واحدة .. وإذا أنا طريح نوم لم أصح منه إلا فى ضحى اليوم التالى ..

وجعلت أذهب يومًا إلى فارسكور ، وأبقى يومًا فى رأس البر .. ثم انكمشت حصة فارسكو إلى ثلاثة أيام فى الأسبوع .. ثم انتهى بى الأمر أن صرت لا أذهب إلى فارسكور إلا يوم الجلسة فقط ، أى مرة واحدة كل أسبوع .. وقد فرح بذلك موظفو النيابة والمحكمة .. فقد كثر ترددهم على رأس البر بحجة عرض وارد القضايا على « حضرتى ».. ولم تبق عقبة فى سبيل متعتى بالصيف وإقامتى الكاملة فى المصيف إلا قضايا التلبس والمحابيس .. أى القضايا التى لا بد لى فيها من استجواب المقبوض عليهم من المتهمين ، وانتهى بى الأمر أيضًا أن صرت أستدعى هؤلاء إلى رأس البر لاستجوابهم .. فيأتون من السجن فرحين مع حراسهم يستنشقون هواء البحر .. وسرت الإشاعة بين

المسجونين والعسكر ورجال الضبط .. وكثر حديثهم عن سعادة « وكيل النيابة » الذى يحضر « المحابيس » إلى المصيف .. فتنافسوا وتزاحموا .. وكثرت طلبات الاستجواب .. وأصبحت أفتح عينى فى الصباح على صف طويل من مجرمين فى الحبال يجرهم طابور من العساكر فما أكاد أخرج من « العشة » أى الحجرة « بالفوطة » والمايوه وبرنس الحمام حتى أتلقى « تعظيم سلام ». من الجنود والمتهمين ، وهم فى نشاط من هواء البحر وبشر متهلل يطفح من وجوههم .. فأقول للعسكر :

— إيه كل دول ؟.. حافظوا عليهم ألا يهربوا منكم !..

فيصيح بى صوت من بين المتهمين المقيدين فى حبال الليف :

— نهرب ليه ؟.. ربنا يخليك يا سعادة البيه .. حد يهرب من الجنة !..

فأقول لهم وكأنى أخاطب نفسى :

— صدقتم .. اتمتعوا بالهوا المنعش .. تمتعوا !..

وإذا بى أسمع صوت أحدهم يقول :

— جعنا يا سعادة البيه .. جعنا .. الهوا جوعنا ..

— ما شاء الله !.. أنتم جايين تغيروا هوا ؟..

ولكنى أعترف أن منظرهم أثر فى نفسى ، ومنظر سعادتهم ملأنى عطفًا عليهم .. ونسيت أنهم مجرمون ومتهمون .. ولم أرَ فيهم إلا تعساء مثلى ، حرموا طويلا نسيم الراحة ، وفرحوا أخيرًا كالأطفال بهواء البحر ..

ودفعت إلى الحراس بعشرة قروش وقلت :

ـــ خذوا اشتروا عيش وحلاوة طحينية لحضرات المجرمين المصيفين !..

وكانت نتيجة هذه العاطفة الإنسانية من جانب سعادة النائب زيادة مروعة فى إحصائيات الجنح والجرائم فى تلك الفترة من انتدابى ، فقد نزل أهالى المركز بعضهم فى بعض ضربًا ولطمًا وقذفًا ، رغبة فى الحبس وطمعًا فى التصييف على نفقة الحكومة ، ولأول مرة أرى قرارات إفراجى عن المتهمين تقابل بالاحتجاج الشديد والطعن فى نزاهة النيابة العمومية .. فلا أكاد أقول للحراس :

ـــ افرجوا عن هذا المتهم !..

حتى يصيح المتهم وهو يملأ رئتيه من هواء رأس البر :

ـــ ده ظلم يا بيه !.. أنا لسه مقبوض علىّ النهارده !..

٨

ليـلة سـوداء

كانت ليلة .. لست أدرى كيف نجوت منها ؟.. إنى أقولها دائمًا وأنا أكاد أجن : إن وظيفة وكيل نيابة فى ريف مصر هى أحيانًا أشق عمل فى العالم كله .. ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندى الخنادق فى الحروب الكبرى !.. سمعت أذان العصر فى المسجد المجاور لدار النيابة التى كنت أديرها .. ولكننى لم أرفع رأسى الغارق فى الأوراق .. كنت وحدى القائم بالعمل .. فقد كنا فى شهر يونيو ، فطوحت الانتدابات الصيفية بمساعدى إلى بلد بعيد .. كان علىّ إذن أن أحضر الجلسات ، وأقوم بالتحقيقات ، وأحرر المذكرات ، وأنهض لضبط الوقائع الجنائية .. كل ذلك كنا نفعله عن طيب خاطر ، لأن غمرة الحياة وزحمة العمل ما تركت لنا وقتًا نفطن فيه إلى عرقنا المتصبب !..

ولم يكد يسكت صوت المؤذن حتى ارتفع صوت نعل عسكرى يدق أرض الحجرة دقًا .. فأدركت دون أن أنظر أنه خفير من المركز :

— خيرًا ؟!..

— إشارة يا افندم !.. مشاجرة دبت بين بلدين ..

— حضرة المأمور قام ؟..

— منتظر سعادتك فى الكومبيل !..

فعلت أن كل شيء معد .. وأن المأمور فى السيارة .. وما علىَّ إلا النزول فورًا مع كاتب التحقيق .. وقد كان .. وركبنا وانطلقنا نقطع أكثر من ثلاثين كيلو مترًا فى طرق زراعية وعرة ترفع سيارتنا وتخفضها ، وترجنا داخلها وتهزنا .. كأننا فيران فى مصيدة ترجها يد صائد منتقم .. حتى أصابنا الدوار ونال منا الكلال .. فما بلغنا البلدة موضع الحادثة ووقفت السيارة ، حتى خرجنا منها نتأرجح كالسكارى .. ودخلنا بيت العمدة ، وطلبت لنا القهوة .. وأمرت بفتح المحضر ، وأنا لا أكاد أعرف لى رأسًا من قدم .. وانتهينا من شرب القهوة ومن فتح المحضر ، وأثبتنا فيه بالطبع حضور المأمور ، وعندئذ نهض حضرته ودنا منى وهمس.

فى أذنى :

ـــ يظهر أن الحادثة بسيطة جدًا .. العمدة المغفل هوّل فى الإشارة .. لا هناك ضرب ولا قتل .. مشاجرة تافهة بين أنفار بالهم رايق .. وأنا قائم بالإجازة الصبح بدرى مع العائلة .. فإذا سمحت لى بالانصراف فإنى أكون شاكرًا .. والبركة فى همتكم ، وحضرة ملاحظ النقطة موجود تحت أمركم !..

فأجبته إلى طلبه مراعاة لظروفه دون تفكير أو تدبير .. فما كاد يختفى حتى ظهرت الحادثة على حقيقتها .. فنحن أمام معركة واسعة النطاق .. وإذا جثث القتلى من الطرفين تخرج من غيطان الذرة محمولة على الأكتاف .. وإذا الرؤوس المفلوقة بالنبابيت تساق إلىَّ من كل جانب .. وإذا الأهالى يتجمهرون حول مكان التحقيق .. يصيحون كلما ظهر مصاب .. يتبينون من أى بلدة هو .. فتولول النساء من أهله ، ويزمجر الرجال من عشيرتـه مهددين .. إلى أن بلغ الأمر حدًا غلت فيه النفوس وثـارت الأحقاد .. فإذا الأصوات تعلو من الطرفين هادرة كالأمواج ، تقسم طالبة الثأر بيدها لا بيد القانون .. ولم يبق إلا شرارة لتندلع نار مذبحة أشد من الأولى خطرًا وأوخم أثرًا .. يحتدم أوارها تحت

أنظارنا المتفرجة ، فتذهب بذلك هيبة الحكومة ..

هنا التفت إلى ملاحظ النقطة .. فوجدته أصفر الوجه .. لا يوحى منظره بالاطمئنان .. وكيف لا يمتقع لونه ، وهو لا يملك الساعة فى حوزته غير ثلاثة من العسكر ، اثنين منهم بجوار الخيول .. والثالث واقف بيننا لينادى على الشهود .. الأمر إذن لا بد أن يعالج بشيء من الحكمة .. فصحت بالناس طالبًا منهم الهدوء ، وانتظار نتيجة التحقيق بشيء من الصبر .. فإن الحكومة تعرف كيف تثأر لصاحب الدم .. فهدأ الناس قليلا .. وباشرنا التحقيق .. ولكن كيف تستطيع أن ترضى طرفين متضادين .. ما كنت أضيق الخناق على متهم من إحدى البلدتين حتى يهتف أهل البلدة الأخرى شامتين فى صوت كالرعد :

ـــ فليحيا العدل ..

حسب هذه الكلمة أن تلفظ حتى تعدها بلدة المتهم تجريحًا لهم وتحرشًا بهم .. فينهضون يلوِّحون بعصيهم ، فأهدئ الحالة من جديد .. بأن أستجوب متهمًا من البلدة الأخرى.. فيعلو صياح الشماتة من البلدة الأولى :

ـــ فليحيا العدل !..

ويتكهرب الجو مرة ثانية ، وتعود العصى والمراوات والفؤوس ترفع فى الهواء .. فأكف عن هذا المتهم لحظة ، وأعود إلى متهم من البلدة المنافسة .. وهكذا دواليك .. حتى خلت نفسى مروض وحوش فى « سرك » .. لا يدرى كيف يسكت الزئير من حوله .. ولا يعلم أيخرج من ذلك القفص حيًا ، أم يسقط ممزق الثوب والجسد تحت أقدام الضوارى المتشابكة ؟!..

لقد أمرت الملاحظ أن يلزم الصمت ..وأن يكون رابط الجأش .. لأننا لن نلجأ مطلقًا إلى استعمال القوة بهذا العدد الضئيل من رجال البوليس ..

وكيف تصنع نقطة فى بحر !.. المهم أن نخرج بكرامتنا .. لكن كيف نخرج ؟.. كانت المشكلة التى تحير فكرى هى : مسألة القبض على المتهمين !.. وقد فطن الملاحظ إلى ذلك الأمر .. فنهض يهمس فى أذنى ..

— إذا قررتم القبض على أحد الليلة .. فإن ..

— فإن هذه البلدة ستكون مقبرتنا !..

قلتها بالطبع فى نفسى .. وقد أدركت مراد الضابط .. إن

البوليس الموجود معنا ، وهو لم يكف لحفظ النظام ، أنستطيع أن نقبض به على متهمين فى هذا الزحام ؟!.. اقترح الملاحظ أن نتصل بحكمدار بوليس المديرية ليرسل إلينا فرقة من الهجانة .. ولكن المسألة إذا وصلت إلى المديرية ، فإن موقف المأمور سينكشف .. و لم أرد أن يطعن فى ظهره حتى بعد أن ظهر لنا من إهماله ما ظهر ، ثم إنى حتى ذلك اليوم ما تعودت طلب النجدة ، ولا الشكوى من شئون العمل ، بل كنت أتجشم التعب ، وأتحمل التبعة خلف جدران الصمت والسكون ..

رفضت اقتراح الضابط قائلا :

— ألا يستطيع القانون أن يسيطر على الموقف بمجرد هيبته ؟.. أتريد أن يقولوا إننا غرقنا فى شبر ماء ؟!..

ففتح الملاحظ فاه .. وأشار إلى خضم جموع الأهالى المحتشدة ، حولنا ملوِّحة بعصيها ونبابيتها ، تهدر وتزمجر ، وتنفث من صدرها النار ومن عيونها الشرر ، ولا يدرى غير القدر متى يفلت زمام الغرائز ، فتقع الواقعة ، وتعصف العاصفة .. وتطغى الأمواج تجرف أمامها كل شىء .. ونكون نحن بأوراقنا ومحاضرنا وتحقيقنا أول المجروفين ..

لم ألق بالا إلى كل ذلك .. ومضيت فى تحقيقى كأنى لا أرى شيئًا حولى .. حتى حصرنا المتهمين فى عشرين رجلا من الفريقين .. كلهم ضارب ومضروب .. عدا القتلى وهما اثنان من الفريقين أيضًا .. واستعرضت المتهمين العشرين أمامى ، وفى كل متهم إصابة ودم يسيل .. فألقيت نفسى وسط شبكة معقدة تضل فيها الذاكرة .. فالمتهم الأول ضرب الخامس والسابع والتاسع .. والمتهم الثانى ضرب الأول والعاشر والرابع .. والمتهم الثالث ضرب الحادى عشر والخامس عشر .. والمتهم الرابع ضرب الثانى والأول والتاسع عشر .. والمتهم الخامس ضرب الثالث والثامن والثانى عشر .. والمتهم السادس ضرب المتهم العشرين .. والمتهم العشرون ضرب السابع عشر .. إلخ إلخ .. ولقد أنفقت الهزيع الأخير من الليل وأنا لم أزل أراجع وأحفظ هذا الحساب والترتيب والوضع ، وأخلط فيه وأخطئ وأتخبط ، فأعود من جديد أسأل :

— مَنْ ضرب مَنْ ؟.. حتى ضاق صدرى ونفد صبرى وصحت أقول :

— أجئنا نضبط حادثة ضرب أم نتعلم جدول الضرب ؟..

ووصل عندئذ مفتش صحة المركز لفحص المصابين .. ولم يكن نظام الطب الشرعى قد امتد وقتئذ إلى الريف .. فلم يشق طريقه إلينا وسط الجموع إلا بشق الأنفس ..

وأجرى الكشف الطبى على المصابين جميعًا ، ورأى نقلهم إلى مستشفى المركز .. وكان فى هذا إنقاذ للموقف ..

فقد استطعت أن أفهم الأهالى أنى لن ألقى القبض على أحد ..ولن أنظر اليوم فيمن اعتدى ومن اعتدى عليه .. فالذى يهمنا الآن هو علاج المصابين .. فهل يريد أحد منكم أيها الناس أن نترك نفرًا من أهله ينزف دمه ، دون أن نبادر بإسعافه ؟..

فسكت الأهالى وأطرقوا مقتنعين ..

عندئذ قلت لهم :

— ساعدونا الآن على نقل مصابيكم إلى المستشفى !..

فبادروا يلبون طائعين ..

وكان الليل قد انصرم .. وطلع الفجر .. فقمت بمعاينة مكان الحادثة بغير ضجة .. تلك الحادثة التى نشأت من عراك طفلين من أهل البلدتين .. سب أحدهما الأخر بقوله :

— « هى بلدكم فيها رجاله ؟!.. » فقام أهل بلدته لهذه الكلمة

قومتهم .. ليثبتوا أنهم رجال .. وكانت تلك المعركة الدامية بين البلدتين ، التى لم يثبتوا بها إلا أنهم أطفال ..

وقد كانوا فى هذه القضية بالفعل أطفالا إلى النهاية .. ثاروا لكلمة وهدأوا بكلمة .. واستطعنا أن نخرجهم من معاقلهم ونجرهم خلف سيارتنا العائدة فى الصباح إلى قلب المركز مع مصابيهم وشهودهم ، راضين صاغرين كقطيع من الحملان الوديعة الطيبة !..

٩

خفت من نفسى

كان ذلك فى يوم من أيام عملى فى طنطا ، وكيلا لنيابة البندر .. دخل علىَّ فى مكتبى كاتب التحقيق وقدم إلىَّ « محضر تلبس » .. قضية نصب على الطريقة الأمريكانية ، كما كانوا يقولون فى ذلك الوقت .. رجلان أنيقان فى سيارة « سبور » فخمة .. قدما من القاهرة فى طريقهما إلى الإسكندرية لحضور سباق الخيل .. فلما مرا بطنطا ، وقفا على حانوت « دخاخنى » وطلبا علبتين من السجاير ، و « فكة » ورقة من فئة العشرة جنيهات .. فبادر البائع المسكين إلى تلبية الطلب .. وكانا يصيحان به أن يسرع ، ويتكلمان بلهجة الأمر والنهى .. فما شك البائع فى أنه أمام رجلين جديرين بكل ثقة واحترام .. فهرول يقدم إليهما السجاير المطلوبة وفوقها تسعة جنيهات ونحو ثمانين

قرشًا .. وانتظر بأدب أن يدفعا إليه بالورقة ذات العشرة الجنيهات .. ولكنهما لم يدفعا إلا محرك السيارة إلى الانطلاق ، فجعلت تسابق الريح ، حاملة بضاعة البائع ونقوده ، بينما هو واقف ، فاغرًا فاه من الذهول ، لم تقبض كفه منهما غير الريح !.. و لم يلبث أن ثاب إلى رشده ، فلطم وصاح وبكى ، وأقام السوق وأقعدها .. ونهض الناس لكارثته ، وجرى رجال البوليس خلف السيارة يطلقون الصفافير .. وشاء الله أن يعطل سير السيارة ، وأن يدركها الناس والبوليس وأن يضبط الرجلان الوجيهان ، وأن يشهد عليهما كل أهل السوق بما لا يدع مجالا للشك فى سوء فعلهما ..

كل ذلك طالعته فى « المحضر ».. وكونت فى الجريمة رأيى ، وهى ثابتة على الرجلين كل الثبوت ..

فأمرت الحاجب أن يحضر أمامى المتهمين لاستجوابهما .. فصدع بالأمر .. وفتح الباب .. وأدخل الرجلين الأنيقين .. فما كدت أنظر إليهما ، وما كادا ينظران إلىّ ، حتى عقد الدهش لسانى ، وانطلق بالفرح لسانهما .. فأقبلا نحوى يقولان بدلال :

ـــ أهلا .. أبو تيفه !..

لم ينتظرا منى دعوة .. فجذبا مقعدين وثيرين ، ارتميا فيهما بغير كلفة .. كأنهما فى دارهما .. وتنفسا الصعداء طويلا .. كأنما الموضوع قد طوى .. والحادث قد محى من الأوراق ..

كان هذان الفاضلان من زملاء الدراسة !..

و لم أدر أنا ما أفعل ولا ما أقول .. وطفقت أنظر إليهما وإلى « المحضر »، وأعيد إلى ذاكرتى ما أعرفه عنهما .. لقد كانا من الشباب المدلل .. الذى انصرف عن الدرس إلى اللهو .. وترك مرحلة التعليم فى منتصف الطريق .. لينفق بجنون ما ورثه عن الآباء والأجداد .. محتمل جدًا أن يرتكب مثلهما هذا الجرم .. بكل استخفاف واستهتار .. ولكن ماذا أنا فاعل إزاء هذا الاطمئنان العجيب البادى عليهما أمامى ؟!..

لقد كان المحضر الذى جاءونى به ، مصحوبًا بحرز مختوم عليه بالشمع الأحمر ، يضم العلبتين من السجائر ، موضوع القضية ، والنقود « الفكة ».. فإذا بأحد الفاضلين يشير إلى الحرز ويقول :

ــ صنف يعجبك !.. افتح لنا علبة واعزم علينا يا أخى !.

فقلت فى نفسى :

ــ « حقًا !.. ليس ينقص إلا هذا .. وأعزم على المتهمين

بالمضبوطات !..

وجعل الآخر يحدثنى عن الأيام الأولى: «فاكر الشيخ بنجر»؟

ويذكرنى بالشيخ مدرسنا الذى أطلقوا عليه اسم « بنجر » كان يقذف تلاميذ الفصل بمركوبه ، إلى أن خطر يومًا لهذا الزميل « المحترم » أن يكيد للشيخ .. فتعمد الوقوف أمام النافذة المفتوحة ، وتحرش به .. فلما قذفه بالمركوب تنحى عن القذيفة بسرعة البرق ، فسقط المركوب فى الطريق .. وبقى الشيخ فى الفصل حافيًا ، يلعن ويسب ..

وضحك الزميل الراوية ضحكا مرتفعًا .. وعارضه صاحبه وحاكاه .. وانتظر منى الضحك ، ولكنى فى حرجى وحيرتى أطرقت أنظر فى المحضر ، وأقلب صفحاته دون أن ألتفت إليهما .. فقال أحدهما وهو يشير إلى أوراقى :

— كلام فارغ كتبوه على مزاجهم ، اطلب لنا فنجان قهوة ياشيخ !!.. انت طول عمرك رجل كريم !.. اطلب قهوة وقرفة وحيى ضيوفك ..

فتصامت .. وجعلت أفكر فى أمرهما .. هل آخذهما بالعنف ، وأفهمهما خطورة الموقف ، أو أسير فى إجراءاتى برفق

وهدوء ولا أصدمهما ، وأقوم باستجوابى فى شكل محادثة لينة ، دون أن يشعرا بشىء ؟!..

آثرت الثانية .. وسألتهما مبتسمًا عن الموضوع .. فأجابا أنه تلفيق فى تلفيق .. فواجهتهما بأقوال الشهود وبالأدلة والقرائن والمضبوطات ، فتخبطا واضطربت إجاباتهما .. وتهربا من وطأة البراهين بالضحك والنكات ..

فتضاحكت أنا أيضًا .. ويدى تكتب فى ذيل المحضر وصف التهمة وتشفع ذلك بالقرار المعروف :

ــ « أمرنا بحبس المتهمين احتياطيًا ويعمل لهما فيش وتشبيه .. إلخ .. »

وضغطت على زر الجرس .. فظهر الحاجب ، ونظر إليهما نظرة يدعوهما إلى الخروج معه ، وقد تسلم منى محضرهما .. فقال أحدهما وهو يلتفت إلىّ :

ــ طبعًا .. إفراج ؟..

وقال الثانى وهو ينظر إلى الساعة فى معصمه :

ــ أظن نلحق الشوط الأول فى السبق .. أورفوار يا ابو تيفه

فقلت مبتسما بهدوء :

ـــ أورفوار !..

وخرجا من مكتبى بكل وقار ، وما كادا يصيران فى الردهة حتى وجدا من يأخذ بأيديهما ويضع فيها الحديد !..

وعند ذاك سمعت ضجة كبرى فى الردهة وأصواتًا ترفع محتجة :

ـــ مستحيل !.. مستحيل !.. وكيل النيابة صديقنا ، زميلنا ، أمر بالإفراج ..

ولكن العسكر ، فيما يظهر ، شدوا السلاسل واقتادوهما إلى حيث ينفذون فيهما قرارى .. فقد أخذت الضجة تخفت ، وصدى صياحهما يبتعد .. حتى عاد السكون إلى المكان ..

ومرت أربعة أيام .. وجاء ميعاد تجديد أمر الحبس .. وجاء بهما العسكر إلى جلسة المعارضة .. فنظرت إليهما وهمست « سبحان مغير الأحوال !.. »

لقد ذهبت الأناقة ، واختفت الابتسامة ، وولى الاستكبار والاستهتار .. وإذا أنا أمام رجلين طال منهما شعر الذقن ، وتمزقت الثياب من شد العسكرى وجذب السجان واتسخت الأبدان من الرقاد على الأسفلت .. وانطفأت نظرة التدلل والاستعلاء ..

وخرس لسان العز ، وهتف صوت التذلل والاستعطاف ..

قلت فى نفسى ، وأنا أسترق إليهما النظر :

ـــ جملة صغيرة من قلمى الأحمر فى ذيل المحضر ، صيرتهما إلى ما أرى من المذلة والهوان .. وإلى ما لن أرى من المستقبل المظلم والمصير المدلهم !.. هذان الزميلان القديمان قد كتب عليهما أن يقعا فى يدى لأغير حياتهما الباسمة ، وأنتزعهما من حلبة السباق، لألقى بهما فى غياهب السجون !.. كلمة صغيرة منــى !.. يا للهول !.. لو أنى جعلتها « تأمر بالإفراج عن المتهمين بالضمان المالى .. إلخ » لكانا اليوم فى الإسكندرية ينعمان بنسيم البحر ، وينطلقان بالسيارة الفاخرة ، يطلقان الضحكات الساخرة .. ولكنى أمرت بالحبس ..

عبارة صغيرة منى تغير مصائر الناس إلى هذا الحد ؟!.. إنى إذن لرجل مخيف !..

ولأول مرة وقع فى نفسى شعور الخوف من نفسى !.. لطالما أمرت بحبس كثير من الناس .. ولكنى ما كنت أعرفهم إلا من المحاضر والأوراق .. كانوا مادة عملى اليومى .. أتصرف فى مصائرهم دون وعى أو اهتمام بأمرهم .. شأنى شأن الطاهى الذى

يذبح فى كل يوم الدجاج والحمام والأرانب ، دون أن يخطر له الرثاء لحالها ، أو البحث فى مآل صغارها ، أو التفكير فيما أحدثه من تغيير فى مجرى حياتها ..

أما هذان الزميلان ، فإنى أعرفهما وعشت معهما ، لحظات من العمر ، هى أصفى وأجمل ما يحفظه الإنسان من أيام عمره .. ومهما يكن من أمر ذنبهما ، فإن يدى هى التى بطشت بهما .. وقررت مصيرهما .. وغيرت وبدلت فى صفحة حياتهما ..

وهبنى أخطأت فى تقدير الأدلة ووزن التهمة ، وأنا لست بمعصوم ، فأى كارثة أنزلتها بمستقبل زميلين !..

يا لى من رجل مخيف !.. ما هذه القوة التى فى يدى ؟!.. ما هذا الجبروت !!.. إذا أصبت أو أخطأت فإن قرارى صاعقة تهبط على رؤوس الناس ، فتحدث فى شؤونهم الأحداث .. من أعرف منهم ومن لا أعرف ..

وشيعت الزميلين بنظرة أخيرة ، والحرس يعودون بهما إلى السجن ، وقد تجدد أمر حبسهما على ذمة القضية .. فذهبا يائسين محطمين وقد اسودت الدنيا فى عيونهما المنطفئة ، بينما أطرقت أنا ، وهتفت من أعماق نفسى المرتاعة :

— اللهم اكفنى واكف الناس شرى ..

١٠

مفتش « كعك »

لم أكن من هواة كعك العيد أو من عشاقه المعاميد ، وكنت إذا ذكر أمامي الاسم المكون من ثلاثة حروف يخرج من بينها حرف حلقي أحسّ كأن شيئًا سيخرج من حلقي !.. وكنت كلما قرأت في حوادث الصحف عن تلك المشاجرات التي تقوم بسبب هذا الكعك بين زوجين قلت : مجانين !.. إلى أن ابتليت .. ومن عاب ابتلي ..

بدأ حبي لهذا الكعك في بداية اشتغالي بالقضاء .. فقد كان العام الأول لتعييني يفرض عليَّ العمل دون حق في إجازة .. وجاء عيد الفطر المبارك فقام زملائي بإجازاتهم ، وتركوني أنهض بأعمالهم ..

أذعنت واستسلمت وخفضت الرأس مكسور الجناح . وقلت : « سبحان الله !.. كل الخلائق تعيد بين الأهل والآباء

والأبناء .. وأنا أعيد بين ملفات الجنح .. والعوارض والمخالفات !.. »

وكانت صفافير الأطفال تخرق أذنى ، فأترك أوراق وأنهض إلى النافذة أبصر فى الميدان الناس فى حللهم الجديدة والصبيان فى أثوابهم الحمراء والخضر والصفر ينفخون فى « الأنابيل » ويصخبون بهز « الشخاشيخ » ويتجمعون ويتفرقون كالنمل حول « المراجيح » المنصوبة بأعلامها الخفاقة وبناديرها الهفافة !.. فأكتئب وأقول فى نفسى :

« لا أنا طفل يحلو لى أن أفعل ما يفعل الأطفال ، ولا أنا رجل أسعد اليوم بما يسعد به الرجال .. ولكنى مخلوق فرض فيه أن يعيش بلا قلب ولا شعور وسط عالم يصيح بالفرح والهناء .. مخلوق كل عمله اليوم أن ينتظر حتى ينقلب الفرح إلى ترح .. وتتحطم أطباق الوليمة .. هكذا جلست فى مكتبى أتلقى أوراق الحوادث التى يسفر عنها العيد .. من نشل محفظة قروى .. وتعدى سكران عربيد ، ومضاربة بين تجار فسيخ ، إلى سقوط طفل من أرجوحة إلخ .. إنه الوجه الآخر السيئ من العيد هو الذى سمح لى أن أتأمله وأحملق فيه ..

ولكن الله لا ينسى المحرومين ؛ فقد أرسل إلىّ زميلا متزوجًا فى

المدينة ، دعانى إلى زيارته قائلا :

— تعال أذقك كعكنا !!..

فكدت أصيح :

— كعك ؛ أعوذ بالله !..

ولكنى تذكرت ما أنا فيه من وحدة وهم وغم .. فقلت :

ليس هذا وقت البطر والتمنع والترفع .. مهما يكن « الكعك » فلن يكون أثقل ولا أمر من ملفات الجنح .. وذهبت وقدم لى صاحبى فنجانًا من القهوة وطبقًا من كعك العيد بوجهه المنقوش ، وسكره المرشوش .. فتناولت كعكة وقضمت وبلعت .. عجبًا !.. ياله من استكشاف !.. إنه لذيذ .. إنه ألذ شيء ذقته فى حياتى .. أترانى أبالغ ؟.. أتراها مرارة حياتى جعلت كل شيء فى فمى لذيذًا .. لست أدرى ، ولكن الذى أعرفه أنى أحببت الكعك .. وتناولت كعكة ثانية وثالثة .. وأفضيت إلى صاحبى بإعجابى ؛ فقال متواضعًا :

— وكيف لو ذقت كعك قاضى البندر ؟..

— وكيف السبيل إلى ذلك ؟..

— هلم بنا نزوره ونعيد عليه .. إنه هنا مع أسرته و لم يسافر ..

— هلم ..

وذهبنا وقدم إلينا كعكه .. فإذا هو حقًا أتقن صنعًا وأمتع طعمًا،فأبديت عجبي وإعجابي ، فقال قاضي البندر :

ـــ وكيف لو ذقت كعك قاضي المركز ؟..

ـــ أهو هنا ؟..

ولم أتم .. فقد عولت على زيارته فورًا ..

وذهبت بالفعل إلى قاضي المركز وقدم إلىّ طبقه،فذقت وقد أصبحت لي خبرة تمكنني من الحكم على دقة الصنعة وجودة الدقيق،وامتياز السمن منذ القضمة الأولى..فحكمت له..فقال لي:

ـــ إذا كنت تريد حقًا أن تذوق كعكًا فذق من كعك القاضي الشرعي!..

فلم أجب ولم أراجع .. ويممت في صمت إلى منزل القاضي الشرعي .. وقدم إلىّ كعكه .. فما كادت رائحته تبلغ أنفي حتى أدركت لطول مراني حقيقة أمره .. فقلت في نشوة :

ـــ نعم .. نعم .. هذا هو الكعك !..

ومضى العيد هكذا .. وأنا أنتقل من طبق إلى طبق .. بعد أن كان مقدرًا لي أن أنتقل من جنحة إلى جنحة .. وعاد زملائي ورؤسائي إلى أعمالهم يسألونني :

ـــ ماذا فعلت فى العيد ..؟

فقلت مزهوًا كمن استكشف فى نفسه موهبة :

ـــ اشتغلت « مفتش »..

ـــ مفتش قضائى ؟..

ـــ مفتش كعك !..

١١

الباحثون عن العدل

إذا كان على الأرض عدل ؛ فإنه يجب التفريق بين مهنة تتحمل أعباءها ساعات محدودة ، ومهنة لا حدود فيها لتبعاتك .. قد تنتزع من فراشك انتزاعًا لتلبى نداءها ، وتلغى راحتك إلغاء لتؤدى نحوها واجبك .. يجب التفريق بين مهنة ترتدى كالقميص فى الصباح وتخلع عند الظهر .. ومهنة كالخاتم النارى يطبع جسمك وشخصك وروحك وضميرك ، فلا تخلع عنك صفتك فى بيت ولا مكتب ، ولا فى ليل ولا فى نهار .. يدخل فى باب هذه المهنة الأخيرة رجال البوليس ، ورجال القضاء .. ولقد رأيت بعينى الجهد الذى يضنى هؤلاء وهؤلاء ، فقد كنت واحدًا منهم فى يوم من الأيام .. ولن أنسى تلك الليالى التى كنت أمضيها فى الأرياف ، أستمع إلى نقيق الضفادع فى الغيطان ، وأتصرف فى

أكداس ملفات الجنح والمخالفات تحت ضوء « لمبة » نمرة خمسة قد اجتمع عليها الناموس والهاموش .. فإذا فرغت من عملى ومن عشائى ، وقمت إلى فراشى موجع الظهر كالمضروب بالسياط ، ألتمس ذخيرة من راحة أواجه بها الغد ، فإنى أنهض وأنا أتسمع وقع الأقدام فى الطريق ، خشية أن يكون الخفير النظامى مقبلا عن جناية تنزع عنى راحة الليل التى هى من حق الدابة والوحش والطير .. كنت أحيانًا أحسد السجين الذى أستجوبه وأودعه السجن .. وأقول :

— « هذا على الأقل يملك ليله .. أما أنا فحتى ليلى ليس ملكى !.. »

أما رجل البوليس فله مثل هذا النصيب وأكثر .. فإن كل مصيبة تخطر على بال الحكومة لا يمكن أن توضع إلا على كاهل البوليس .. فهو المسئول عن الأمن والنظام والضرائب والأموال وتنفيذ الأحكام الجنائية والمدنية والشرعية ، والتعليمات الخاصة بالرى والقرعة وضبط الأسلحة وتهريب المخدرات والممنوعات .. إلخ ..

كل وزارة من وزارات الدولة تلقى حملها على هذه النجوم

أو « الضبابير » المثبتة فوق كتفى رجل البوليس .. ووالله لو كان لهذه « الضبابير » أجنحة لطارت من هول ما يلقى عليها ، ولو كانت من نجوم السماء ، لفضلت أن تدور فى فلك الشمس على أن تدور مع حضرة المأمور أو الضابط فى خط سيره اليومى ..

كنت أقول لزملائى من رجال البوليس ونحن نقوم ليلا إلى الوقائع الجنائية « لا تتبرموا .. هذا واجبنا .. نحن الساهرين على أمن البلاد !.. »

فكان يهمس من بينهم صوت :

« لو ساوونا فقط بأولئك الساهرين فى النوادى والكلوبات ؟ »

المساواة !.. هذا شىء ليس من حقنا أن نطلبه .. ولكن الذى نطمع فيه هو أن يكون هنالك ميزان عدل .. يزن جهودنا ، ويقدر لها حقها ويمنح هذا الحق فى مواعيده بلا مماطلة ولا إبطاء ..

* * *

كنت أقول ذلك وأنا أحس فى قرارة نفسى مرارة الظلم الذى أعانيه .. فما من أحد يحفل بمنحى الدرجة التى كنت أستحقها لا بحكم عملى المرهق ، ولا بحكم وضعى القضائى ، بل حتى

بالأقدمية .. إلى أن نقلت من هذا السلك إلى وظيفة فى وزارة من الوزارات .. حيث جلست فى حجرة أنيقة الرياش ، وقد ألحقوا بى « سكرتيرًا » خاصًا .. يضرب على الآلة الكاتبة خطابًا واحدًا كل أسبوع .. فإذا الدرجات تنهال علىّ تقديرًا لما أقوم به من أعمال .. هى تناول القهوة ومطالعة الصحف والمحادثة فى التليفونات .. والانصراف إلى الغداء والنوم والملاهى والسهرات ؟..

وسرعان ما نسيت الظلم والعدل .. إلى أن جاءنى زميل قديم ، كان معاون إدارة ، وظل بعد تلك الأعوام كما كان .. قال لى :

— أتعرف « ما هو معاون الإدارة ؟.. » هو حمار السباخ فى المديرية أو المركز .. نعم .. أنا حمار سباخ حضرة المأمور .. يلقى فى « الغبيط » الذى على ظهرى كل ما قبح وقذر وشق وثقل من أعمال .. وهيهات مع ذلك أن تلمع على كتفى نجوم !..

— أتريد هذه النجوم ؟..

— هذا أمل بعيد .. أبعد من نجوم السماء !.. ولكنه العدل .. ذلك العدل الذى لا يوجد إلا فوق ..

وأشار إلى السماء .. إشارة نمت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ !.. فقلت له :

ـــ ما دمت تؤمن أن فى السماء عدلا .. فلا بد أن يهبط منه يومًا شيء على هذه الأرض ..

وانصرف الرجل .. وتركنى أفكر .. وحلقت فى التفكير حتى وصلت إلى ما تخيلته فى السماء .. فوجدت عجبًا .. وجدت بهوًا متسعًا .. فيه رهط من الملائكة على مكاتب .. وقد بدت عليهم الراحة وما يشبه التثاوب ، وإذا ملاك يدخل عليهم كما دخل علىّ « معاون الإدارة » قد ظهر عليه الجهد والتعب ، وهو يصيح فيهم :

ـــ أتعرفون من هو عزرائيل ؟.. هو الجراب الذى تلقى فيه لعنات البشر .. هو العمل المتصل الذى لا يعرف فترة راحة ولا همود .. هو اليقظة بالنهار والسهر بالليل .. هو الذى يقوم بعمله وحده منذ بدء الخليقة .. فيقبض الأرواح التى تزداد على مدى الأحقاب عددًا .. فى كل يوم يضاف إلى ما يثقل كاهلى صنف جديد من أصناف الموت .. لم يعد الطوفان بكاف ولا الحروب ولا الطاعون .. لقد اخترعوا قنبلة ذرية .. تحصد

مئات الألوف فى لمحة عين .. فأقع فى حيص بيص بمفردى فى الميدان ، أجمع هذه الألوف المؤلفة من الأرواح .. مسرعًا مضطربا خائفًا أن يفلت منى بعضها ، أو ترد فيه الروح ، قبل أن أقبضها .. فأحاسب على الإهمال .. أنا أصنع هذا كله ، علاوة على عملى الأصلى .. بينما أنتم تجلسون على هــذه الأرائك ، لا تصنعون شيئا .. وتحسبون مثلى ، وفى مرتبتى من الملائكة .. وربما أشرف منى وأولى أحيانًا بالتقديم ..

فارتفع صوت احتجاج من بين صفوف الملائكة الجالسين :

ــ نحن لا نصنع شيئًا ؟..

ــ طبعًا .. ماذا تصنع أنت الآن يا جبريل ؟.. لقد كنت تهبط لتبلغ الأنبياء .. وقد انتهى عهد التبليغ والأنبياء.. فما هو عملك الآن ؟.. أخبرنى ؟.. وأنت يا إسرافيل .. كل عملك أن تنفخ فى الصور يوم القيامة ، فمن الآن إلى يوم القيامة ، ماذا تصنع ؟.. أخبرنى ؟.. أنا مظلوم يا إخوانى !.. أنا مرهق بالعمل .. أعبائى تزداد كل يوم ثقلا .. أنا وحدى من دون الجميع الذى تتضخم أعماله .. بالأمس كان الواحد يغتال الآخر بسكين أو برصاصه .. أما اليوم فهو يستخدم قنبلة تودى بعشرات من

المخلوقات .. هذه كلها أليست أرواحًا جديدة محسوبة علـيّ أنا ؟.. ومع ذلك لم يفكر أحد فى انتداب ملاك جديد يساعدنى ، بل لم يفكر أحد فى إنصافى ورفع درجتى بين زملائى .. أو رفع مستواى بما يتفق مع الزيادة فى العمل ..

ولم أسترسل فى الخيال أكثر من ذلك .. فقد هبطت الأرض فجأة على صوت باب حجرتى يفتح ، وقد ظهر معاون الإدارة وقد عاد يقول :

ـــ لا تؤاخذنى .. فكرة خطرت لى وأنا ذاهب ؛ فرأيت أن أرجع لأخبرك بها .. إن لم يكن هنالك أمل فى « نجوم السماء » فلا أقل من النظر فى أمر إنصافى ورفع مستواى بما يتفق مـع أعمالى ..

فقاطعته على غير وعى منى :

ـــ أنت أيضًا ؟!..

ـــ أنا أيضًا ماذا ؟..

قالها محملقًا فىّ بعينيه من خلف منظاره ذى الإطار المعدنى الأبيض .. فقلت له وأنا أحملق بفكرى :

ـــ اسمع يا حضرة المعاون !.. عندما خلق الله « التمييز » خلقه

فى كل مكان ، وفى كل شيء .. التمييز بين الحظوظ والمصائر والأقدار ، كالتمييز بين الحسن والقبح ، والصحة والمرض ، والليل والنهار .. إنما الإنسان الواحد تتناوبه حالات مختلفة من سعادة وشقاء وصحة ومرض وليل ونهار .. فإذا كان من حظك أن تخلو كتفاك اليوم من ضوء النجوم فلا تيأس .. هل لك أولاد ؟..

— عندى ولد ..

— هذا هو الذى قد تشرق عليه نجوم السماء !.. إن العدل أيضًا حق موجود ... قد يلحقك فى عقبك وخلفك .. فى الجيل الذى يليك .. إن حسابنا الجارى على الأرض ؛ لا يفتح لحياة واحدة ولا يغلق بانتهائها وحدها .. حتى « عزرائيل » الذى يشكو من كثرة العمل ، سيأتى يوم يرتاح فيه إلى الأبد .. عندما تقوم القيامة ويلغى الموت .. فلا يجد غير الأرائك يتكىء عليها ويتثاءب ويحسده الآخرون كما كان يحسدهم ..

— عزرائيل !.. وما دخل عزرائيل هنا ؟!..

قالها المعاون دهشًا .. وهو يفحصنى بعينيه الضعيفتين .. فتنبهت وقلت له الفور :

— عفوًا .. هذا موضوع آخر.. بيني وبينه !.. المهم أن على الإنسان و .. « غير الإنسان » أن لا ييأس من وجود العدالة .. وأن يسعى من أجل تحقيقها بصبر وجلد .. وأن ينتظر ثابتًا آملا دورة العجلة الكبرى للقدر .. تلك العجلةالتى لا تكف عن الدوران ، فتضع الأسفل فى الأعلى ، والأعلى فى الأسفل .. وهكذا دواليك ..

كان لى صديق ، يا حضرة المعاون ، كلما أصابه سوء ، وأردنا أن نهون عليه ، صاح فينا صابرًا :

— « ما علهش » !.. هو الفلك تسمر ؟!..

فأطرق المعاون ، وطفق يردد هامسًا هذه الجملة مقتنعًا مؤمنًا .. وكأنما دخل قلبه الأمل والعزاء .. ولكنى استأنفت قائلا له :

— هذا موقفنا — نحو الله — معشر البشر .. ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لنا موقف آخر نحو أنفسنا .. إن الله لن يزيل القبح ولا المرض ولا الظلم ولا الليل .. عن طريق المعجزات أو الخوارق .. إنما على البشر أن يدرأوا ما استطاعوا عن أنفسهم الضرر .. وعليهم أن يسعوا فى سبيل الصحة والجمال .. وأن

يكافحوا من أجل العدالة والنور ..

— وكيف نكافح ضد ما خلقه الله ؟..

— إن الله قد وضع فى كل شىء بذورَ ضدّه .. فإذا فتحت مغاليق المرض وجدت فيه بذرة الصحة ، وفى القبح بذرة الحسن ، وفى الظلم بذرة العدل ، وفى الليل بذرة الفجر !..

إن الكون أدق مما تتصور صنعًا .. والله أبرع مما تتصور صانعًا .. ولم يترك شيئًا للفوضى ولا للركود ..

— وما عمل البشر إذن ؟..

— فلح الأرض .. واستخرج البذور الصالحة ، واستنباتها .. زرعًا نضرًا وثمرًا شهيًا ..

١٢

الطاجن وصل !..

كانت المشكلة التى تشغلنا أكثر مما يشغلنا عملنا هى مسألـة الطعام ، وهل فى ذلك عجب؟.. إن الطعام هو مشكلة الأمس واليوم والغد .. وهو الذى تقوم من أجله الحروب !.. وتعقد من أجله المؤتمرات .. على أن مشكلتنا كانت أعوَص من أى مسألة طرحت على موائد البحث .. لأنها لم تكن متعلقة بالطعام ذاته .. بل بطهو الطعام ..

ولقد طرحنا وجوهنا على موائد الأكل ، حتى انتهى بنا الأمر إلى قبول الواقع بغير بحث ..

كنا ثلاثة ـــ منذ عهد بعيد طبعًا ـــ نقطن مسكنًا فى مدينة دمنهور :

ـــ قاضى البندر ، ووكيل نيابتها ـــ وهو أنا ولا فخر ـــ ثم

قاضى إيتاى البارود .. وكانت النفقة بيننا بالثلث فى كل شىء .. وكان زميلاى متزوجين ، ولهما بيتاهما فى القاهرة .. ولكن ضرورة العمل ونظام الجلسات .. اللذين يقتضيان بعدهما عن بيتيهما فى العاصمة أربعة أيام فى الأسبوع ، فرضا عليهما هذه التكاليف الإضافية ، فكان من مصلحتهما الاقتصاد غاية الاقتصاد .. وأدى بهما خوفهما من ترك الحبل على الغارب ، أن قررا وضع نظام لشئون مسكننا ، يماثل نظام الجلسة القضائية فى محاكم الاستئناف ، أى أن يكون الحكم للأغلبية .. فأنا مثلا لا أستطيع أن أنفرد باقتراح لون من ألوان الطعام إلا أن يؤيدنى واحد منهما .. وهكذا الحال مع الجميع .. وكان لنا خادم يقوم على خدمتنا ، ولكنه لا يفقه شيئاً فى طهو الطعام .. وكان ضئيل المرتب ، فحكمت الأغلبية ببقائه مع عدم الاعتراض على ما يقدمه ويسميه مأكولا .. حتى جاء الفرج ذات يوم فى صورة اقتراح تقدم به « حاجب الجلسة » الذى رثى لحالنا .. فقال أعزه الله :

— إذا شئتم يا أصحاب السعادة فإن امرأتى تعد لكم الطعام فى دارنا كل يوم وأحمله إليكم ساعة الغداء ..

فوافقت الأغلبية ، على شرط أن يكون الطعام مما يطهى فى

الفرن لنضمن البساطة والنظافة ..

منذ ذلك اليوم ونحن لا نأكل إلا فى « طاجن » من فخار أحمر .. قد اسود من القدم والدخان « وهباب » الفرن .. تلقى لنا فيه امرأة الحاجب قدرًا من البطاطس وقدرًا من اللحم .. يتناقص مع الأيام دون أن تنقص النقود .. فلا يكاد يكفى بطوننا .. وفيها بطن قاضى إيتاى ، وهو رجل عربى الأصل سليل قبيلة من قبائل البدو ، يضرب بلقمته قاع الطاجن ، فإذا أضخم اللحم وأطيبه قد وقع له .. ولا يقوم من المائدة حتى يمسح قعر الوعاء بآخر كسرة ، ونحن نصيح فيه :

— اترك شيئًا لغداء الخادم !..

— غداؤه على الله .. إن الله لا يترك مظلومًا !..

يقولها وينهض عن الخوان يجرع من « القلة » ويتجشأ .. وصرنا منذ ذلك الحين لا نسمى خادمنا باسمه .. بل أطلقتنا عليه اسم « المظلوم ».. وجعلنا لا نناديه إلا بقولنا :

« هات يا مظلوم كوب ماء » ... « امسح يا مظلوم الحذاء !.. » وهلم جر !..

وكان يسمعنا أحيانًا بعض الزوار من الأصدقاء ، ونحن ننادى

خادمنا بهذا الوصف .. فيتساءلون دهشين :

ـــ أيوجد مظلوم بينكم ؟.. وأنتم كلكم رمز العدالة ؟!..

فيقول قاضى إيتاى البارود ببديهته الحاضرة :

ـــ حيث توجد العدالة يوجد الظلم !..

وكان قاضى إيتاى يمضى إلى جلسته بقطار الصباح الباكر ويعود بقطار الساعة الواحدة ظهرا.. وهو يحرص على إنهاء جلسته فى هذا الميعاد ليلحق بهذا القطار .. لأنه إذا فاته فلن يجد أمامه غير قطار يصل إلى دمنهور فى منتصف الثالثة ، والمجئ به ، لا قدر الله ، معناه المجئ بعد موعد الغداء وفراغ الطاجـن وإنصاف « المظلوم » !!..

وكنا نحن من جانبنا : أنا وقاضى البندر ـــ وعملنا متحد فى جلسات الجنح .. والجلسة تتشكل منه ومنى ـــ نحرص على إنهاء الجلسة قبيل موعد حضور القطار القادم من إيتاى البارود ، فقد تشاء أحيانًا المصادفة السيئة أن يتم إنضاج الطاجن فى الساعة الواحدة .. وأن يسبقنا إليه قاضى إيتاى .. فإذا حدث هذا ويصبغ لنا والعياذ بالله ، فنحن أمام كارثة لا نستطيع لها دفعًا ولا ردًا ..

أخذتنا ذات مرة حماسة العمل وكثرة القضايا المعروضة على

المحكمة .. فنسينا الوقت ونسينا أنفسنا ، وإذا حاجب الجلسة ينظر فى ساعته ويقبل مسرعًا يهمس بقرب المنصة :

ـــ الطاجن وصل البيت من بدرى .. وقطر إيتاى البارود وصل المحطة من زمان !..

ـــ راح الغداء وعلينا العفاء ..

لفظها القاضى يائسًا ثم نظر إلىّ قائلا بصوت مرتفع :

ـــ ما رأى النيابة ؟..

ـــ النيابة فوضت الرأى للمحكمة ..

ـــ ترفع الجلسة للاستراحة .. على أن تعقد فى الساعة الخامسة بعد الظهر !..

ونهض من كرسيه يخلع وسامه الأحمر.. وأنا فى أثره أخلع وسامى الأحمر الأخضر .. ووثبنا إلى قاعة المداولة نطرح فيها ملفاتنا .. وخرجنا إلى عرض الطريق راكضين ونحن نقول :

ـــ يا نلحق الطاجن .. يا منلحقهوش !..

* * *

لبثنا على هذا الحال زمنًا .. لا طعام لنا إلا طاجن البطاطس فى الفرن .. حتى عاد قاضى البندر من القاهرة ذات يوم يقول لنا ..

وكأنه ينبهنا من غفلة :

— يا لعجب أمرنا ..! حتى مجرد الذوق كدنا نفقده !..

ذكرت لزوجتي عرضًا مسألة الطاجن .. فدهشت وقالت : « ألا توجد عندكم صينية ؟.. هل يوجد ألذ من صينية البطاطس فى الفرن !.. دعكم من هذا الطاجن وجربوا الصينية يا ناس ؟ » ..

فصحنا بزميلنا الطموح :

— ومن أين لنا الصينية ؟..

— نشتريها ..

— أنا لا أدفع أكثر من عشرة قروش !..

قالها قاضى إيتاى وهو يخرج نصيبه من جيبه قطعة فضية .. وأخذنا الأصوات .. فأقرت الأغلبية الموافقة على شراء الصينية على شرط أن لا يتجاوز ثمنها ثلاثين قرشًا .. وبادرنا فأفضينا برغبتنا إلى حاجب الجلسة .. فهرش رأسه ثم قال : صينية نحاس بـ « ثلاثين قرش » ؟!..

مستحيل !.. أقل من خمسين أو ستين « قرش » ..

— هذا جنون !.. ستين « قرش » !.. لا .. لا داعى أبدًا فلنبق على الطاجن إلى آخر الدهر !.. قلناها جميعًا بصوت واحد ،

وأقفل باب المناقشة فى هذا الشأن .. وانتقلنا إلى جدول الأعمال .. ومضى كل منا إلى عمله .. قاضى إيتاى ركب القطار إلى محكمته .. وأنا وقاضى البندر ذهبنا إلى محكمتنا حيث تنتظرنا أكداس المخالفات والجنح .. وظل حاجب المحكمة بباب الجلسة ينادى على القضايا .. وظلت القضايا تتوالى أمامنا ، والأحكام تترى من فم المحكمة كأنها طلقات مدفع حتى عرضت علينا قضية رجل اتهم بأنه ضرب زوجته بعصا فأحدث بها إصابات اقتضت علاجًا أقل من عشرين يومًا .. فما كاد الرجل يمثل أمام المنصة ، حتى نهض محام يقول :

— حاضر مع المتهم ..

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة .. فالتفت إلىّ القاضى ، وفى عينيه نظرة فهمت معناها .. فأنا أيضًا كان يجول فى خاطرى عين المعنى .. محام الآن ؟.. ومرافعة بإسهاب وبيان ؟!.. ما من شىء بالطبع يستعجل هذا المحامى وما من خطر يهدد غداءه .. فإن الله لم يبتله بقاضى إيتاى .. وبادرت المحكمة تسأل المتهم بسرعة :

— اسمك ؟..

ـــ محمد عبد المغيث شمروخ ..

وأراد المحامى أن يتظرف فقال :

ـــ اسمه « شمروخ » ولكن الضرب حصل بعصا رفيعة !..

فلم يبد على المحكمة التفات إلى ذلك المحامى « الرايق ».. وجعل القاضى يقلب فى أوراق الملف ويبحث عن التقرير الطبى .. وهو يتابع أسئلته بصوت آلى ..

ـــ عمرك ؟..

ـــ حوالى خمس وثلاثين سنة ..

ـــ صناعتك ؟..

ـــ صانع صوانى نحاس ؟..

وهنا حدث انقلاب فى هيئة المحكمة .. فقد ترك القاضى الملف ورفع رأسه ناظرًا إلى المتهم باهتمام .. وكذلك فعلت النيابة .. وأقبل القاضى على المتهم يسأله بعناية :

ـــ صوانى نحاس مما يستعمل فى الأكل ؟..

ـــ فى الأكل وغير الأكل .. حسب طلب الزبون ..

ـــ تقصد صوانى مما يطهى فيها البطاطس فى الفرن مثلا ؟!..

ـــ بطاطس يا سعادة البك وفطير ومكرونة .. وكل لوازم

الفرن ..

— قل لنا الآن بالضبط .. صينية نحاس تتسع لأقتين بطاطس وأقة لحم ؟..

عندئذ تدخلت النيابة فى شخصى ..

— لتكن بحيث تتسع لثلاث أقات بطاطس وأقة ونصف من اللحم .. يجب أن نحسب حساب « المظلوم » !..

فوافق القاضى على ملاحظتى .. وقال مؤيدًا :

— صدقت .. يجب منذ اليوم إنصاف « المظلوم » !..

وأشرق لهذه الجملة وجه المتهم ، فهتف من أعماق قلبه :

— يحيى العدل !.. أنت يا سعادة القاضى كلك نظر .. وعرفت أنى مظلوم !.. فليحيى العدل !..

وظن المتهم أن المحكمة قد برأته .. ولم يفهم المحامى من الأمر شيئًا .. فالمحكمة لم تسأل المتهم بعد عن ضرب ولا لطم ، وتحرك المتهم للانصراف .. فبادره القاضى صائحًا فيه :

— تعال يا راجل !.. قف مكانك . ورد على أسئلة المحكمة !..

— محسوبك يا سعادة البك ..

ـــ لنعد أولا إلى مسألة الصينية .. ما هو الحجم .. حجم الصينية المذكورة ؟..

و لم ير المحامى فى هذه المناقشة الغريبة بصيصًا يمكنه من تتبعها ، فأخذ يقلب على عجل أوراق صورة المحضر فى ملفه .. ويهز رأسه حيرة وعجبًا وعجزًا .. وانتهى به الأمر أن قام يقول :

ـــ يا حضرة الرئيس .. الضرب كما هو مدون فى محضر البوليس ومن أقوال المجنى عليها حدث من عصا رفيعة وليس من صينية نحاس !..

ـــ لحظة يا حضرة المحامى .. لحظة ..

قالها القاضى وهو ينظر إلى المتهم ماضيًا فى سؤاله ..

ـــ أخبرنا ما هو حجم الصينية بكل دقة ..

ـــ هذا شىء حسب الوزن يا سعادة البك !.. مثلا الصينية الصغيرة وزنها ثلاثة أرطال .. والمتوسطة ما بين خمسة وستة ..

فقلت للرجل من كرسى النيابة :

ـــ اعمل حسابك على ستة أرطال !..

فصاح القاضى بقوله :

ـــ هذا معقول !.. صينية ستة أرطال ؟..

وطفق المحامى المسكين يسمع هذا الكلام .. وهو كالمذهول ينقل عينه وأذنه بين القاضى ووكيل النيابة والمتهم ، ويحاول أن يفهم مما يدور بينهم شيئًا فلا يستطيع ؛ فيعود إلى ملفاته يقلب صفحاتها بسرعة .. وهو يقول كالمخاطب نفسه :

ـــ أنا قرأت القضية !!. لو لم أقرأ القضية !؟.

ولم يطق صبرًا ، فجعل يهمهم فى مجلسه ويزفر ويهدر :

ـــ لو كانت المحكمة تدلنى أين ورد ذكر الصينية فى الأوراق ، لا فى محضر التحقيق ، ولا فى التقرير الطبى ، ولا على لسان الشهود .. ما من إشارة عابرة إلى صينية ؟.. سأجن يا ناس وأفقد عقلى !..

ومع ذلك فكان عليه أن ينتظر مرغمًا حتى تنتهى المحكمة من استجواب موكله .. ففرك جبهته بكفه ، وركز انتباهه طلبًا للفهم .. والمحكمة ماضية فى سؤالها ..

ـــ وما سعر الرطل النحاس ؟..

ـــ سعر السوق اليوم حوالى خمسة قروش ..

ـــ أى أن الصينية المتوسطة الحجم ثمنها نحو ثلاثين قرشًا ؟..

ـــ تقريبًا ..

وكان حاجب الجلسة قد أرهف أذنيه عندما وصل الحديث إلى السعر .. فما كاد يسمع أن الصينية ثمنها ثلاثون قرشًا حتى هاج وماج .. وزمجر وصاح من مكانه :

— تصدق المجرم ده يا سعداة البك .

فالتفت المحامى ، وقد أخذته البغتة والدهشة من كل مكان .. فها هو ذا حاجب الجلسة أيضًا قد دخل فى الموضوع .. وقد فهم المضمون .. القاضى والنيابة والمتهم والحاجب .. كلهم يتحاورون فى أمر هو وحده الذى لا يدرك كنهه .. هو المحامى الذى قرأ القضية وأعد مرافعته البليغة فيها .. وهيأ لها جوها .. حتى النكتة الرائقة ، والإشارة البارعة .. ودرس كل ظروفها .. واحتاط لكل مفاجآتها .. ها هى ذى مفاجأة ما كان ينتظرها .. وما كانت لتخطر له على بال .. كنت أبصر على وجهه فى تلك اللحظة هيئة لن أنساها .. لقد كان مضحكًا فى حيرته .. إلى حد لا يتصوره .. ولو رآه لضحك هو منه حتى آخر حياته .. ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلا .. فسرعان ما انتهينا من مسألة الصينية وعدنا إلى موضوع القضية الأصلية .. واستطاع القاضى أن يحول دفة المناقشة بلباقة حتى دخل بها جوهر التهمة .. كما يدخل الربان

الماهر بالسفينة ميناء الأمان ، إن عبثت بها تيارات المحيط .. وعاد إلى المحامى اطمئنانه عندما بدأت القضية تسير فى مجراها الطبيعى .. فترافع ودافع كما اشتهى ، ونسى لحسن الحظ مطلع المناقشة الذى حيره .. ولم يسائل بعدئذ نفسه فيه .. ولم يكشف له سره بالطبع حتى اليوم ..

* * *

هكذا عشنا فترة من الزمن ..

نكد ونعبث ، ونعمل ونلعب ، ونخلط الجد بالهزل ، ونمزج الوقار بالضحك .. ونغلف تبعاتنا بثوب من المرح ويصبغ لنا الشباب كل شىء بلون الخمر .. وكانت لكلمة « الغد » فى صدورنا خفقة ، كخفقة الورد وهو يتلقى قطرة الندى فى كل فجر .. وكان لكل شىء فى أفواهنا طعم .. ولو كنا نعرف أن لذة « الطاجن » القذر قد ذهبت معه ، ولن نجدها بعد ذلك فى أفخر الموائد ولا فى أفخر الولائم .. وأن حلاوة المناقشة فى عشرة قروش لن تشترى فيما بعد بآلاف الجنيهات .. لكنا قدرنا قيمة ما نملك ، وعلمنا أن السعادة كانت هابطة فى مسكننا دون أن ندرك ..

هكذا عشنا تلك الفترة إلى أن فرقت بيننا الأيام وبعثرتنا الأقدار .. فانتقل قاضى إيتاى إلى جوار ربه ، ووصل قاضى دمنهور إلى أرقى المناصب القضائية ... وانتحيت أنا جانبًا أدوّن من حين إلى حين صفحة من هذه الذكريات ..

فهرس

الصفحة

رقم الإيداع : ٣٩٥٦ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٦ ــ ٠٤١٣ ــ ١١ ــ ٩٧٧

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه